مختارات من
الأدب الروسي

Telegram:@mbooks90

الحب المقدس

الكسندر كوبرين وآخرون

ترجمتها عن الروسية: أ. د. دينا محمد عبده

الرواق للنشر والتوزيع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحب المقدس

ألكسندر كوبرين وآخرون

ترجمة: أ. د. دينا محمد عبده

الطبعة الأولى: يناير 2024

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

للنشر والتوزيع

186 عمارات امتداد رمسيس 2

مدينة نصر - القاهرة - مصر

هاتف: 20220812006+

rewaq2011@gmail.com

www.alrewaqpublishing.com

تصميم الغلاف: كريم أدم

الإخراج الفني: ضياء فريد

المراجعة اللغوية: سهيلة رمضان

الترقيم الدولي 978-977-824-213-3

رقم الإيداع 2023/26672

٢٧٠٥٨١٨٦٥٨

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ألكسندر كوبرين

ألكسندر إيفانوفيتش كوبرين، كاتب روسي، ولد في 26 أغسطس عام 1870 في مقاطعة بينزنسكايا. عمل والده، سليل إحدى الأسر النبيلة، موظفًا، وقد تُوفي بعد مولد ألكسندر بعام واحد. أما والدته فتنتمي لعائلة تتارية عريقة، وانتقلت بعد وفاة الزوج إلى موسكو حيث التحق كاتب المستقبل بالمدرسة هناك ثم التحق بمدرسة ثانوية عسكرية وأصبح ضابطًا في الجيش القيصري. بدأ مشواره الإبداعيّ بعدة قصائد شعرية ثم قصة «التجلي الأول» 1889م وقصص أخرى، مثل: «في الظلام» و«ليلة مقمرة». أعطته الحياة العسكرية خبرة واسعة انعكست في الكثير من أعماله، مثل: «الكاديت»، و«طالب في المدرسة العسكرية» و«الحملة» و«المعركة» و«تحقيق» و«المأوى» و«نوبة ليلية». تقاعد كوبرين برتبة ملازم أول في عام 1894م وسافر إلى كييف حيث التحق هناك بعدة وظائف وقد مكنه ذلك من اكتساب خبرات عديدة انعكست في أعماله الأدبية. كتب عدة مؤلفات، مثل: «سوار العقيق» و«أوليسيا» و«جمبرينوس» و«نهر الحياة» و«سولاميف» و«الحفرة». كتب معظم هذه الأعمال في العقد الأول من القرن العشرين، ونالت شهرة وشعبية متميزة على الساحة الأدبية. سافر إلى عدة دول أوربية. تحمس للإطاحة بالقيصرية ولكن لم يتقبل الشيوعية واعتُقلَ. بعد ذلك سافر إلى باريس منذ عام 1920م. وفي عام 1937م عاد إلى أرض الوطن بدعوة من حكومة الاتحاد السوفيتي. وتُوفي في يوم 25 أغسطس عام 1938م بعد إصابته بسرطان المريء ودُفِنَ في لينجراد بجوار مقبرة الكاتب الروسي الكبير إيفان تورجينيف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القادم الأول

ألكسندر كوبرين

سيدتي الكريمة

لا شك أن رسالتي الحالية ستفاجئك أو حتى ربما ستزعجك. وبالطبع لا شيء يمنعك من أن تُلقي بها في الموقد دون أن تقرئيها. لكن على كل حال أسألك أن تنظري إلى ختم مكان الإرسال على الظرف، وستري أن هذه الرسالة كتبت من على بعد أكثر من ألفي ميل منكِ. أمَّا فيما يتعلق بتوقيعي علانية أدناه باسمي ولقبي، فهذا بمثابة ضمان أنك لن تكوني موضع خداع أو ابتزاز أو مكيدة ولا أي نوع من الآمال المتهورة من ناحيتي...

حدث ذلك في سان بطرسبرج منذ أربع سنوات بالضبط في يوم 22 أغسطس عام **18. آه وحتى وأنا أموت سأتذكر هذا التاريخ وهذا المساء الممطر البارد والرطب. كان يعلق في الهواء ضباب كثيف فلا يُمكن أن يُرى شيء على بُعد عشرين خطوة، وقد بدت أضواء المصابيح الكهربية من على بعد مثل بقع قزحية كبيرة، وفي كل مكان من اليمين ومن اليسار ظلَّ يُسمع صوت قرقعة العربات غير المرئية. ومن وقت لآخر يقطع الظلمة الرمادية بقعتان صفراوان من الأضواء. هناك عربةٌ تمر. في مكان ما تسير عربة يجرها حصان، لكنها لم تكن مرئية. حينها تجولت في الشارع بلا هدف، وأحيانًا وقفتُ أمام النوافذ المضاءة، وظللتُ واقفًا أمامها حتى عشر دقائق وأكثر حيث يتملكني فضول غريب حالم. تجتذبني بشكل خاص الشقق ذات المفروشات الفارهة، والنجف والسجاد والمرايا والمزهريات والأثاث الفخم. ما زلتُ وقتها فقيرًا ووحيدًا (كما هو الحال الآن). لقد أنهك صحتي السعيُ في الحياة، والعيش في الغرف المفروشة والوجبات الرخيصة، وجعلتني الوحدة الأبدية جامحًا حالمًا انطوائيًا. وبسبب هذه القُوَّة الوحشية للأحلام، كنتُ مدينًا لتلك المتعة التي عايشتها وأنا أقف أمام نوافذ المنازل غير المألوفة تائهًا وسط الليل والضباب وصخب العاصمة غير المبالي. لقد عشت حياتين. نهارًا، خجولًا مرتبكًا بوجه كريه لذاتي، مُرتديًا قميصًا كرتونيًا وسروالًا مرفوعًا من أسفل برباط مثل صوف الكلب البودل. نهارًا، أقف أمام البوابة، وأخبئُ بحرص تحت الكرسي الذي كان يجلس عليه حذائي المثقوب، عانيتُ عندما كانوا يصافحونني دون

اكتراث، وعلى استحياء أتجنب الشوارع التي تعج بالبشر. لكن في المساء، تحت النوافذ المحببة لي آه! كنت ماهرًا، وسيمًا وذكيًا، أفوز بقلب النساء وأكسب في البورصة.

يا لها من خيول رائعة لدي ويا لها من طاولة! دخلت هذه الغرف الجميلة، المضاءة بالشمعدانات والمشبعة بالرائحة الدافئة للعطور والنباتات: هذه الغرف ملك لي. لعبت هناك الورق مع ثلاثة من العجائز ذوي المظهر الأرستقراطي وتبادلنا ببطء عباراتٍ مهمة ورائعة. لقد سحرتُ الحضور بغنائي، وأنا أقف بجوار ذلك البيانو المفتوح. كنت أقوم بدور إما زوج أو خطيب أو عشيق لكلّ النساء الجميلات ذوات الحركات الرشيقة، الغارقات في الدانتيل والمتكئات في دلال على أثاثٍ ساحرٍ. استحوذت النساء في مثل تلك الأمسيات على كل تصوراتي بقوّة. أما في النهار فأنا لا أجرؤ أن أجامل حتى منظفة صحون بسيطة.

ومع ذلك فقد تنحيت جانبًا، وإني لأطلب العفو عني بسبب انسحابي اللاإرادي واستمراري في ذلك. في زاوية «ليتينا» في شارع «نيفسكي» وقفتُ بالقرب من مصباح الشارع امرأة ما من دون حراك، لا تتضح هيئتها بسبب الضباب. اقتربت منها وظللت في دهشة. لم يذهلني أنها امرأة، لا أحد يعرف كم من النساء يخرجن في مثل هذا الوقت إلى شوارع بطرسبرج بسبب الطيش أو الخداع أو الفقر! ولكن كيف لمثل هذه المرأة أن توجد في تلك الليلة الخريفية القذرة وفي مفترق طرق مزدحم. كانت وحيدة، وحيدة تمامًا، بلا رفيق، بلا صاحب، بلا عربة. بدا هذا الأمر لي أمرًا عجيبًا وغامضًا، كيف يمكن أن أرى في الشتاء وردة حمراء ملقاة على الثلج وسط الحقول.

تشعر في قوامها الممشوق، في وقفتها، في كل ثنية من فستانها الغامق أنها امرأة من المجتمع الراقي، واحدة من تلك النساء اللائي يمكن رؤيتهن في المساء في تلك اللحظة التي تخرج فيها بعد لعبك للورق. فهن بمنتهى الخفة والسرعة يمررن على السجاد الأحمر إلى المدخل المضيء بين صفين من الأزهار الموجودة في أحواض كبيرة يتركن خلفهن رائحة عطرة خفية. لم أكن أنا وحدي من شعر بذلك، فبينما أراقبها، مر بالقرب من تلك الغريبة العديد من الرجال في السراويل المثنية وسجائرهم في أفواههم. لكن لم يجرؤ أحد أن يقترب منها، لم يمتلك أحد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منهم الجرأة أن يتحدث معها.

بدا أنها مضطربة بشكل ما، استدارت برأسها عدة مرات بجزع في الاتجاهين، ومن وقت لآخر تطرق بمظلتها على الرصيف المتسخ.

في البداية اعتقدتُ أنها تنتظر شخصًا ما، بالطبع محبوبها. لكني على الفور تركت هذه الفكرة جانبًا، بعد أن تذكرت مواقف البغاء التي قرأت عنها في روايات فرنسية لا تعد ولا تُحصى، ومنها البارونة الصغيرة «دي كوسي» التي بعد أن حددت موعدًا للقاء مع رايموند، ذهبت في عربته الخاصة وخرجت منها في منطقة نائية عن المدينة، وبعد ذلك وبعد أن طردت سائق العربة، استأجرت عربة أخرى، وبهذه الطريقة سقطت في النهاية في العش الصغير، أسسه رايموند الساحر بذوق رفيع. علاوة على ذلك إذا كانت تنتظر شخصًا ما، فحتما ستظل تنظر في الساعة بشكل مستمر، لكن ربما أنها في كرب، في احتياج، في مأزق؟

وفجأة وبدافع من الفضول اقتربت من تلك السيدة الغريبة ورفعت لها قبعتي. وبسبب سلوكي الغريب هذا شعرت كيف أن قلبي أخذ يدق، وجف حلقي، لكني وجدت في نفسي القوة لكي أتكلم:

- سامحي جرأتي يا سيدتي، ولكني أرى أنك في مأزق... هل ربما ضللت الطريق؟... هل يمكنني خدمتك بشيء؟

نظرت إليّ... لا لا، نظرت إليّ وكما يُقال في الروايات: كانت تقيسني من رأسي إلى أخمص قدمي. نظرت إليّ نظرة طويلة صامتة، وفجأة تحدثت إليّ بنبرة تصميم لا تخضع لأي وصف:

- أنت أو غيرك... كله سواءً!...

وبسرعة أخذتني من ذراعي، وأضافت بلهجة آمرة:

- هيا!

وإلى جانب بالقرب من المكان الذي كنا نتحدث فيه، تقف سيارة أجرة. تذكرت في ذلك الوقت أنه لا يوجد في جيبي سوى روبلين وبعض العملات من الفئة الصغيرة، كنت أحتفظ بها لسداد إيجار الشقة.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

- أليس مناسبًا لك أن تركبي السيارة الأجرة؟ سألتها.

لم تُجب بأي كلمة عن سؤالي، وقفزت في السيارة بسرعة. وقفت بالقرب في حيرة شديدة. دست يدها اليسرى في ثوبها، وصرخت في جزع:

- اجلس! أنا في عجالة!

- إلى أين ستذهبين؟

سأل الحوذي، وهو منحنٍ.

- إلى أين ستذهبين؟

كررت أنا السؤال مثل صدى الصوت. يا إلهي! يا له من وجه جميل غاضب استدار لي فجأة:

- أليس الأمر لي سواء؟

وقالت بنبرة اشمئزاز:

- إلى أين تأخذ هؤلاء... هؤلاء النساء؟

أمرت الحوذي أن يسير مباشرة، مررنا في ليتينايا، ومررنا بشارع آخر، هي صامتة وأنا خائف من التحدث إليها. أخذت أتساءل في نفسي، مَن تلك الرفيقة الغامضة: هل هي مدمنة مورفين أم مجنونة أم امرأة غريبة مسافرة وسُرِقت ولا تعرف المدينة ولا تمتلك نقودًا؟ هل ربما يطغى عليها حزن شديد؟ هل ربما تحتاج إلى مساعدة؟ لكن -أقسم بالرَّب- لم تخطر ببالي فكرة سيئة واحدة؟ هذه السيدة الغريبة تصدر عدة إيماءات يمكن من خلالها الحكم عليها بالتوتر ونفاد الصبر. وفجأة سألت بصوت متقطع:

- هل سنصل سريعًا؟

- سامحيني... أنا... أنا حقًا... أنا لا أفهمك تمامًا.... أنا حقًا لا أعلم إلى أين تريدين الذهاب.

ضربت بيدها المظلة في غضب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- يا إلهي!... لقد قلت لك أنا لا أعرف أوكارك القذرة.

في ذلك الوقت مررنا بالقرب من لافتة، عُلِّق فوقها مصباح ومكتوب عليها «الغرف في زنجبار شهريًا ويوميًا».

- ها هو فندق!

قلت على استحياء.

مالت برأسها في صمت وابتعدت عني تمامًا. أوقفت الحوذي. أحدث صوت باب العربة صريرًا حادًا طويلًا.

تصاعد أمامنا سلم خشبي ضَيِّق جدًا عليه قماش من الكتان شديد القذارة وعلى طول الحائط رُسمت صور لبعض الأشجار وبالقرب منها صور لسحب صغيرة، وقد تصاعدت رائحة حساء الملفوف والكيروسين.

صحت بكل قوتي: «عامل الفندق!» ارتد صدى صوتي ولكن لم يستجب أحد لندائي. نظرت إلى المرأة التي أصحبها، ولكنها لم تنظر إليَ؟ وبدا لي أنها ترتعش. حينئذ صحت بأعلى مما سبق: «عامل الغرف»، «البواب!»

في هذه المرة ظهر على السلم صبي حافي القدمين، ناعسًا ومنتفخًا، توقف، وحك إحدى قدميه بالأخرى، وأخذ يهرش في شعره الأشعث، ومن دون أن يفتح عينيه المغمضتين، سأل بصوت قوي:

- ماذا تحتاج؟

- هل هناك غرف متاحة؟

- يوجد. هل تريد غرفة كبيرة؟

- سيان، فقط غرفة بسرعة!

استدار وقال بوهن: «تفضلا!» وأخذ يصعد السلم إلى أعلى. نظرت للمرة الأخيرة إلى المرأة الغريبة وبدا الأمر كما لو أنها صعدت السلم بشجاعة متحدية تلك النظرة المتسائلة. مشيت خلفها، لم تكن ترتدي حذاءً ذا الرقبة الطويلة، وتناثر طين الشارع على حذائها الجلدي الصغير وعلى تنورتها السوداء من أسفل وعلى جوربها الشبكي

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

-غريب- هذه الملاحظة الصغيرة ملأت قلبي بشفقة لا توصف تجاهها...

كان الصبي الحافي القدمين ينتظرنا عند باب الغرفة وهو ممسكٌ بشمعة في يده.

دخلنا، الآن، بينما أكتب تلك السطور يتراءى أمامي بشكل جلي الوضع المبتذل لتلك الغرفة (كما أتذكر الآن، الغرفة رقم عشرة)، مباشرة أمام الباب وُجدت مرآة مستديرة في وضع مائل يحدها إطار برونزي متقشر وتحتها أريكة وكرسييان فوتيه، مُنجَدان بالكريتون الدَّاكن المنقوش عليه زهور حمراء كبيرة، وبينهما طاولة سوداء مستديرة، وإلى اليمين خزانة ذات أدراج عليها دورق مغبر وكوب، وإلى اليسار سرير حديدي قابل للطي عليه مرتبة رفيعة عارية، وعلى النوافذ ستائر من قماش الكاليكو. حتى إنني أتذكر ورق الحائط، على خلفية خضراء قذرة تكررت الرسومات نفسها على نمط رقعة الشطرنج؛ برج وماء وجسر مرتفع فوق الماء وعلى الجسر يقف رجل وامرأة ممسكين بأيديهما معًا يرتديان الملابس من زمن لويس الرابع عشر. ظهر خادم الفندق وراءنا وهو يحمل في يده وسادة فوقها ملاءة مطوية وبطانية من الصوف الرمادي بأطراف حمراء، وبعد أن ألقى هذه الأشياء على السرير، مسح أنفه بحافة كفه وسأل بفظاظة:

- هل ستأخذان الغرفة لبعض الوقت أم الليلة كلها؟

أشرت إليه بيدي ولكنه أكمل:

- لو الليلة كلها فإن الشرطة ستطلب جواز السفر، لذا.

قال بصرامة:

- لو...

- اخرج من هنا!

نطقت المرأة الغريبة فجأة. وقد قيلت هذه الكلمات بهدوء تام -من دون توتر، من دون تأثر، من دون احتقار عظيم- بلهجة شخص بسيط لم يخطر بباله مطلقًا أن مطلبه ممكن أن يظل غير محقق، وقد جعلت تلك الثقة القوية غير الواعية الصبي يقفز على الفور من الباب وهو في حيرة. وأصبحنا وحدنا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقفت غريبتي حتى ذلك الوقت أمام الخزانة من دون حراك وظهرها للباب. وعلى ما يبدو أنها لم تستطع اعتياد هذا الاشمئزاز الذي أثارته تلك الغرفة الفظيعة فيها. استمر الصمت المتوتر دقيقتين أو ثلاثة.

فجأة أدارت رأسها بكبرياء نحوي قليلًا، وسألتني بصوت جاف دون أن تنظر إليّ:

- أنت بالطبع، تعرف لماذا جئت إلى هنا معك؟

- عفوًا، بحق الرب -تلعثمت- لكنني... حقًا لا أستطيع أن أخمن...

اقتربت مني بخطوات سريعة، وأجبرتني تلك العينان الداكنتان المتوهجتان والحاجبان الرفيعان اللذان انثنيا في منتصف الجبهة ثنية غاضبة، على التراجع من دون قصد.

- كيف لا تعرف؟ -صاحت وهي تتنهد- أنت لا تعرف؟ أنت؟ أنت؟ رجل؟ أنت تكذب!!

لم أجد إجابة عن تلك الأسئلة الغاضبة والشغوف في الوقت نفسه... التزمت الصمت. ألقت الغريبة فجأة مظلتها على الأريكة بحركة قوية وألقت بقبعتها وبيد مرتعشة أخذت تفك أزرار بلوزتها الكبيرة المصنوعة من اللؤلؤ.

- أنت لا تعرف؟... أفضل كثيرًا! -سمعت صيحات متقطعة غاضبة- أفضل كثيرًا... ألا تعرف أنني بحاجة إلى أول شخص أقابله... ألا تفهم أول شخص أقابله، وهذا يعني أنت، أنت بالذات -صاحت بشفتين مرتجفتين- أنا بحاجة إليه لكي... ها ها... لكي... ها ها ها ها...

انفجرت في ضحك غريب متواصل، رقيق وفي البداية هادئ. ثم بعد ذلك عندما ارتفع أكثر فأكثر أثار في نفسي الرعب. وقد اختلط الضحك بالنحيب والأنين والتنهيدات المتقطعة التي جعلت جسد المرأة الممشوق يرتجف، أخذت ترتعش وتتمايل من جانب إلى آخر، هممت أن أمسكها من خصرها وأنا مرتبك خائف ومصدوم وأقودها إلى الكرسي الفوتيه. سقطت داخل الكرسي وألقت رأسها إلى الخلف، وغطت وجهها بيديها. فتحت النافذة، واقتحم الغرفة هواء بارد رطب. رأيت أن هذا قد هدأ من روع السيدة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سكبت المياه في الكوب وقدمته للسيدة، وظللتُ أقول لها في أثناء ذلك بعض الكلمات المهدئة غير المترابطة، هزت رأسها بالنفي ودفعت يدي بعيدًا بيدها الصغيرة ذات القفاز الأصفر، وشيئًا فشيئًا هدأت النوبة وتوقف تقريبًا النحيب، ومن تحت يديها اللتين تغطيان وجهها لم تُسمع سوى شهقات متشنجة. بعد ذلك هدأت تمامًا، وفجأة وبسرعة وفي دفعة واحدة نهضت من الكرسي.

- هيا... قالت بجفاف، وقد اتخذ وجهها تعبير الكبرياء السابق نفسه.

بعد أن ابتعدنا حوالي عشر خطوات عن المدخل توقفت فجأة ونظرت إلى رأسي وقالت في برود:

- لا يهمني رأيك في هذه الواقعة برمتها... فأنا لا أنوي أن آخذ منك وعدًا بألا تحكي لأحد عنها، لكني أطلب منك عدم مصاحبتي وعدم معرفة اسم عائلتي. هل تسمع؟

وبعد ذلك ومن دون أن تقول كلمة وداع ومن دون أن تلقي نظرة عابرة علي، مشت بسرعة على طول الرصيف، أخذت أنظر لمدة دقيقة إلى هيئتها المرتفعة المترنحة ثم أخفاها السحاب.

من المحتمل جدًا في نظر أي شخص آخر أن تكون تلك الواقعة التي وصفتها مجرد مغامرة شيقة ولقاء غامض.. ولا شيء أكثر من ذلك. ولكن أمّا أنا فأصبح أعظم حدث في حياتي.

أصبح لدى هذا المخلوق التافه المنسي الحقير الفقير قوة رهيبة من الخيال والحلم المهووس.

استحوذت عليّ امرأة جميلة غامضة تمامًا وإلى الأبد. في اليوم الأول أخذت أسير كما لو أنني في حالة هذيان. لم أستطع أن أفهم ما حدث، وأحيانا كنت أشك: هل يمكنني أن أعتبر هذا في الواقع أحد أحلامي السخيفة؟ حتى أنني تعمدتُ أن أذهب إلى ذلك الشارع لكي أقتنع بوجود غرباء أتوا من قبل في غرف «زنزبار».

كل يوم تسيطر عليّ الذكريات أكثر فأكثر وقد أصبح تذكر أدق تفاصيل تلك الليلة الممطرة لديّ متعة وضرورة. أصبحت أفكر فيها نهارًا وليلًا، صباحًا ومساءً،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأنا أسير وأنا أتناول الطعام وفي أثناء العمل، ولكن تظهر لي أكثر قوة وجلاء في أثناء الليل. أنا لم أعرف قط الحب الحقيقي بسعادته، لكني سمعت وقرأت كيف أن العشاق ينتظرون لحظة اللقاء بفارغ الصبر. أؤكد لك أنني ظللتُ أنتظر بفارغ الصبر ذلك الوقت الذي سأرقد فيه في الفراش في الظلام والصمت الذي لا يقطعه فقط سوى دقات البندول على الحائط لكي أستسلم لذكرياتي وأحلامي. عجبًا، ألا تظنين أن في هذه الليالي يكون لدي القليل من العمل. ولكن قبل أي شيء لم أستطع أن أتذكر وجه امرأتي الغريبة.

تطفو آلاف الوجوه الأخرى أمام عيني وتطغى على الوجه الجميل ولكني بإصرار كنت أستحضر ذلك الوجه بالذات وأقسو على رأسي المسكين فقد سبَّب لي آلامًا شديدة، والآن بلغتُ ذلك. الآن أعرف كل تقسيمة وأدق ثنية في هذا الوجه، ولا يمكن لأيّ صورةٍ أن تحل محل ذاكرتي. أحيانًا أشعر به، حتى أنه يبدو لي أنني أشم الرائحة الذكية التي بقيت على يدي بعد ملامستي لملابس تلك المرأة. ثم أشرع في تذكر تسلسل الأحداث.

بقيتُ بشق الأنفس، خطوة بخطوة أعود إلى الوراء، أستحضر التفاصيل الصغيرة في ذهني، أستعيد كل إيماءة، كل كلمة، كل استدارة بالرأس. هذا صعب ولكنه ممكن، أتتذكرين، ربما حَظِيَ موباسان في حياته ببطلةٍ تُلقي له ورقة في الزنزانة، ومع كل يوم من أيام حياته كان يتذكرها تدريجيًا. وبالحرص نفسه فإنني أستحضر في ذهني مساء يوم الثاني والعشرين من أغسطس، وكل ما كتبته هنا... بالضبط كالحقيقة. وبعد ذلك أحاول أن أتوغل داخل الأحداث، أنظر إلى الروح الغاضبة لغريبتي وألقي الضوء على تلك الفجوة المظلمة. والأصعب من أي شيء هو أني أضطر للسير في طريق مشكوك فيه. لو سألوني: كيف يتصرف هذا الشخص بهذه الطريقة في ذلك العمر وبهذه النشأة وهذه البيئة في ظل تلك الظروف، لأجبتُ بثقةٍ كبيرةٍ أو صغيرةٍ، ولكن لدي فقط معلومات عن سلوك الإنسان، ووفقًا لهذا السلوك لدي الشغف أن أعرف كيف تدفع العاصفة النفسية الإنسان. أحاول أن أتفهم للمرة الألف ما حدث. أنا أعرف أن غريبتي ذات كبرياء، شغوف، طائشة وجريئة. أي نوع من الصدمة العاطفية ألقت بتلك المرأة ذات الوجه الأرستقراطي والنبرة الآمرة في الشارع في مساء خريفي متسخ؟ ولا شك أن هذه الصدمة أقوى من الموت نفسه، لأن هؤلاء الأشخاص ذوي الكبرياء أسهل لهم أن يموتوا من أن يتحملوا العار.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد أصبح العار ضروريًا لها بالذات.

عجبًا! تذكرت الآن معنى العبارة المريرة الرهيبة التي ألقتها لي «أول شخص أقابله». لكي تُلحق العار بشخص آخر، يعني أن تُلحق العار بنفسها هي أوَّلًا... ومن هنا تبقت خطوة واحدة من أجل الوصول إلى استنتاج أن حيلتها المفرطة هي مسألة غيرة لا تُحتمل وفشل في الانتقام. «العين بالعين، والسن بالسن». أرادت نفسها أن تسدد الإهانة التي تلقتها، ولكن بشكل أكثر فظاعة. بعد ذلك أخذتْ أحلم. رسم لي خيالي حدائق فارهة ذات نوافير ولصوص، واختطافًا لجميلتي الرائعة. وظهر المنقذ غير المتوقع ثم ثروة تسقط من السماء على الرأس. ولكن هل يستحق هذا الحديث عنه؟ التزمت لمدة عامين بشكل مقدس بتنفيذ طلب غريبتي، وكيف لي أن أعرف اسم عائلتها وعنوانها؟ لكن القدر نفسه قد دلني عليها بشكل غير متوقع تمامًا. ذات مرة كنت أسير في الشتاء على طول الساحل الإنجليزي، خرجت عربة من بوابة أحد المنازل الرائعة، يجرها اثنان من الخيول السوداء ووقفت عند المدخل. وخرجت سيدة من المدخل، وعند رؤية ذلك كان عليّ أن أمسك بالجدار حتى لا أسقط.

أنت بالطبع لا تكترثين لهيئتي المثيرة للشفقة في المعطف الرث والقبعة المجعدة. أما أنا... فاستطعتُ أن أعرفك ولكن إثارة واحدة، مثل الصدمة الكهربية، قد هزت روحي. لقد عرفت كذلك شعار النبالة الخاص بك على العربة واسم عائلتك والمكانة الرفيعة التي يشغلها زوجك، عرفت كل ذلك بشكل لا إرادي تمامًا، ولم أرغب على الإطلاق في اختراق أسرار الآخرين. وسرعان ما نُقلت من بطرسبرج إلى المكان الذي أكتب منه.

تبعدني حتى الآن أربع سنوات عن أمسية أغسطس الضبابية، لكن كل سمة من سمات تلك الواقعة غير المألوفة لا تزال تعيش بقوة ووضوح في روحي. لا تضحكي عليّ أو تغضبي مني لو في النهاية قررت أن أقول «أحبك». قولي إن حبي جنون، لأنني سعيد على طريقتي الخاصة، وأباركك لأنك منحتنني أربع سنوات في حياتي. أربع سنوات من المعاناة الممتعة والهانئة. في الحب فقط الأمل والرغبة يصنعان السعادة الحقيقية.

يجف الحب القانع، وبعد أن يجف يخيب الأمل ويترك بقايا مريرة في الروح...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأنا أحب بلا أمل، ولكن مع الحماسة نفسها التي لا تنطفئ، وبالحنين نفسه، وبالجنون نفسه. أنا شخص منبوذ مثير للشفقة قد أحبَّ ملكة، هل يمكن لهذا الحب أن يسيء للملكة؟ وفي النهاية يمكنك أن تسامحيني على هذا الخطاب الجنوني لسبب آخر، وهو أنني أكتب لك من المستشفى، وقد قال لي الطبيب (الطبيب العجوز الذي كان يعالج والدي الراحل) أنني لن أعيش أكثر من شهر. وحقًا من الصعب أن تغضبي من شخص يحتضر خاصة إذا يقف على حافة هذه الهاوية السوداء الباردة، ويرسل إليكِ مباركته وعرفانه الأبدي.

(اسم ولقب)

الحب المقدس

ألكسندر كوبرين

ألم تسمعوا بهذه القصة بعد؟.. لا؟.. شيء مدهش!.. في المدينة اليوم يتحدثون عنها فقط. إذا أردتم، أيها السادة، يمكنني إخباركم ببعض التفاصيل.

تجمعت توًا مجموعة صغيرة حول الرَّاوي، الموظف في الجريدة المحليَّة، حيث كان يدور الحديث حول أخبار المدينة الصباحية، عن انتحار ثنائيٍ، موظف الغرفة المحلية وعشيقته، صانعة القبعات ذات السبعة عشر عامًا.

مر أمام المستمعين في خلال دقائق شخص اعتاد منذ فترة طويلة تفاصيلَ الصَحف، كل الأحداث مميزة بالرغم من الحقائق التافهة للحب التعس الذي ينتهي نهاية مأساوية. استحالة الزواج بسبب الفقر، عدم رضا الوالدين عن كلا العاشقين، استمرار العلاقة، الحب المتحول إلى عادة غير مبالية على إثارة الشغف بانتظام، ورسائل المنتحرين المؤثرة ببساطتها الساذجة التي تُوصي بدفنهم معًا، وفي النهاية الموت الرهيب على فراش مشترك.

تسببت القصة في نشر كثير من الشائعات الصَّاخبة، بعض النَّاس أكد أنَّ الانتحار بشكل عام هو سمة من سمات الضعف، وبعض يقول إنَّ في مثل هذه الحالة لا يوجد ما يعرف بالانتحار الثنائي، بل قتل وانتحار، وآخرون يتذكرون حالات أخرى مُماثلة من سجلات الصحف.

قالت إحدى السيدات الحاضرات التي كانت تستمع إلى قصة الموظف ذي الوجه الشاحب والعينين اللامعتين (مثلما تستمع كل النساء دائمًا للقصص عن الحب المتفاني للغاية أو الحب التعس) بصوت حالم:

- على أي حال فقد كان حبًا قويًا. كم عانى كلاهما المصائب، وكم من لحظات سعيدة مرت بينهما حتى وصلا إلى هذا القرار الفظيع. كل امرأة في قرارة نفسها تحلم بمثل هذا الحب.

جذبت هذه الكلمات الانتباه العام. صمت الجميع بعض الوقت. وفي النهاية كسر الصمت صاحب المكان، وهو رجل مسن ذو وجه مجعد وشعر أشيب في الرأس

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

يشكلان معًا تباينًا رائعًا مع عينيه الجميلتين والحيويتين اللتين تبدوان شابتين.

- بالطبع لم يكن هذا حبًا عاديًا -قال بصوته الرخيم- وأنتِ يا سيدتي عبرت بجدارة عن أن هذا الحب حمل للمتوفين الكثير من المشاعر القوية الدافئة، ولكن من وجهة نظري يوجد كثير من الأحداث في الحياة التي في ظاهرها تافهة ولكنها تخفي وراءها الكثير من المعاناة والأفراح، مثل هذه الحادثة الرهيبة، كنت أنا بطلًا في أحد هذه الأحداث، وإن كنت أخشى أن أسبب لكم الملل أيها السادة.

عبر الضيوف عن رغبتهم في الاستماع بكل سرور، وشرع الرجل المسن في سرد قصته.

- منذ خمسة وعشرين عامًا كنت طالبًا في جامعة ن-سكي، كانت المدينة غير معروفة تمامًا، ولكن بالصدفة السعيدة تمكنت من استئجار شقة مناسبة جدًا وغير مكلفة بالقرب من الجامعة في مكان أكثر هدوءًا وسكينة.

في بداية الأمر شعرتُ كما لو أطير بجناحين، الجامعة وعظمة العلم الذي لا يقدر بثمن وخدمة البشرية من دون مقابل، كل تلك الأمور التي تبدو لي الآن مضحكة ملأت روحي بشعور عذب وفخور. كان يومي محددًا بدقة بالساعات وفقًا لمواعيد محاضراتي، واعتدتُ أن أقرأ كثيرًا، وأحضر المحاضرات بانتظام، وكل مساء أكتب يومياتي.

حلَّ الرَّبيع، ربيع دافئ عبق مسكر، لم يكن لأحد أن يتصور كل هذا السحر في الشمال. ازدهرت أشجار الكرز والسنط الأبيض واحدة تلو الأخرى وملأت الهواء برائحة خفيفة، وحلت ليال فضية رقيقة، لم أتمكن وقتها من إغلاق عينيّ، وقد أنهك جسدي الانتظار الرهيب والسعيد. وفي إحدى هذه الليالي الرائعة تسللت إلى قلبي امرأة.

ذات مرة في أثناء عودتي في الحادية عشر مساء تقريبًا من عند أحد الأصدقاء، جلست عند نافذة مفتوحة تطل على حديقة كثيفة شبه نامية من دون إشعال النار.

كان القمر مضيئًا وبدت القباب الدائرية للأشجار مغطاة بضباب أبيض شبه شفاف، وهناك في مكان ما جوقة من الضفادع تصيح بصوت عالٍ وقويّ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفجأة في الحديقة أحدث صوت مفصلات أحد الأبواب صوت صريرٍ عاليًا، ووصل إلى مسامعي صوت ضحكة أنثوية مرحة مبهجة ورنانة، وظهرت هيئتان لامرأتين على الطريق أسفل نافذتي ثم اختفيتا تؤًا في ظلال شجرة الزيزفون العريضة، ثم ظهرتا من جديد في بقعة مضيئة ثم اختفيتا.

تلك الغريبتان ممشوقتان بقامة طويلة، لم أتذكر عما كانتا تتحدثان، ربما عن تفاهات النساء، أو عن تزيين القبعات، أو عن المعارف المتبادلين، لكن صوتهما الشاب الذي دائمًا ما قطعته ضحكاتهما الخالية من الهموم قد أثارني بشكل رهيب.

كل ما تمنيته في هذه اللحظة أن أسير وأحتضن إحداهما في تلك الحديقة المليئة بالدفء الرطب ونور القمر الفضي، أسير صامتًا وببطء وأنا أشعر بيد صغيرة رقيقة في يدي وأسمع ضربات قلب عزيز لدي!

على الرغم أنني كنت أبلغ العشرين من عمري، فأنا عفيف مثل يوسف الجميل. لكن هذا يبدو أمرًا قاسيًا لشباب اليوم الذين يريدون أن يعرفوا كل متع الحياة من سن الثانية عشر ويمرضون في سن الخامسة عشر من الحب الطائش وفي سن العشرين يسأمون منه تمامًا. أحدثت مغامرات بعض رفاقي العابرة بداخلي شعورًا بالخوف الدائم المختلط بالاشمئزاز. لكن الحلم بالحب الطاهر السامي لامرأة رائعة دائمًا دَاعَبَ روحي بشكل غامض منذ وقت طويل.

غادرت المرأتان الغريبتان الحديقة، وظللت جالسًا لفترة طويلة عند النافذة حتى اخترقني نسيم صباحي بارد وأصابني بالبرودة. وبدا لي في أثناء نومي أني أسمع ضحكًا أنثويًا رنانًا.

عندما غادرت شقتي في اليوم التالي لأذهب إلى الجامعة (كان لدينا اختبار في موسوعة القانون في ذلك اليوم) رأيت من الباب في مقابل المبنى الخارجي امرأة ترتدي بلوزة من القماش الأسود الناعم وقبعة من القش بها ريشة بيضاء وفي أثناء سيرها استدارت للوراء على ما يبدو للشخص الذي يرافقها وصاحت: «انتظر، لا تغادر، سأعود بعد نصف ساعة...» ومن صوتها عرفت أنها إحدى الغريبتين بالأمس. كان وجهها ساحرًا. وداكنًا ووورديًا ونحيفًا بعض الشيء، وعيناها كبيرتان ترتعش فيهما نيران الضحك الماكر الخفي، ولديها ذقن مستديرة أبية وشامة أسفل الجانب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأيمن من الفم.

مرت بالقرب مني ونظرت في عيني نظرة مرحة غير مبالية وخرجت من البوابة واستدارت إلى اليمين. حدقت إليها لفترة طويلة متطلعًا إلى مشيتها الرَّشيقة التي يتمايل من خلالها خصرها النحيل. استدارت إلى الوراء مرتين متأثرة بتلك النظرة المتمعنة. لكني لم أنوِ أن أسير وراءها على الرغم من أن هذا طريقي وفضلت أن أسير في المنعطف الكبير بدلًا من أن أضايق تلك الغريبة بملاحقتها.

التقيتها تقريبًا كل يوم بها (بالطبع أبحث عن الفرصة لذلك باستمرار)، وخلال بضعة أيام تبادلنا الابتسامات شبه السريعة التي ترتسم على شفاه الغرباء الذين يلتقون باستمرار. ملأت هذه الصورة الجميلة روحي كلها، واستيقظتْ على فكرة بشأن غريبتي وأخذت أرسم ملامحها وأجلس في الحجرة أحلم بها في الليالي الصافية الطويلة والليالي الدافئة التي لا نوم فيها. لم يخطر ببالي أن أقوم بمحاولة للتعرف عليها، وفكرة أنها من الممكن أن تتأذى من هوسي أصابتني بالرعب.

إن الحب يعطي متعًا كثيرة، ولكن لا يمكن أبدًا أبدًا أن يكون بحدته ورقته وعذوبته ما لم يُعبَّر عنه. لم يحدث لي في حياتي أن تجلب لي مداعبات النساء العاشقات الأكثر حرارة الإعجاب أو السعادة الطاهرة مثلما تفعل الابتسامة العرضية لغريبتي. الكل سيان للذوَّاق، فزجاجة كاملة من النبيذ الجيد لا يدغدغ ذوقه مثل كأس واحدة صغيرة الحجم.

Telegram:@mbooks90

ذات مرة أسقطت حقيبتها الشبكية الجلدية الصفراء، والتقطتها على الفور وأسلمتها إليها. تبادلنا بعض الكلمات، ولم أتذكر أيها لأن قلبي ظلَّ ينبض بشدة وكنت أحاول أن ألتقط أنفاسي لدرجة أنني بصعوبة أستطيع الوقوف على قدمي.

في اليوم التالي التقينا كالمعارف، وسمحتُ لنفسي أن أمشي معها على طول الشارع لفترة من الوقت. وعندما نضطر للافتراق، يبدو لي أن وجهها يتحول إلى الحمرة بعض الشيء.

اسمها يلينا (كم كنت أنطق اسمها بصوت عالٍ في نشوة عندما أبقى وحدي، هذا الاسم الرَّنان ذو الحروف الرقيقة الممتدة).

لم تتمكن من إنهاء المدرسة الثانوية بسبب مرض في عينيها، والآن تعمل في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

متجر للقبعات. تعيش مع أمها، وهي امرأة بدينة بسيطة ذات روح طيبة.

صديقاتها يزرنها من وقت لآخر. ويأتي عمها مرة في الأسبوع في سيارته الخاصة. (كان رجلًا ثريًا وبارزًا) أخبرتني هكذا يلينا ذات مرة: «هو رجل طيب، يساعدني أنا وأمي.» رأيتُ هذا العمَّ ثلاث مرات، ولكن ترك لديّ انطباعًا مقززًا. هو صغير الحجم، أشيب، مترهل، ذو انتفاخات داكنة تحت العين وشفة سفلية حمراء كبيرة ومبللة، لدرجة أنها بدت وكأنها مقلوبة للخارج، غير أنني عندما علمت أنه يساعد يلينا ووالدتها، كنت على استعداد أن أقبّل ذلك العجوز وتلك الشفتين.

بعد بضعة أيام، دعتني يلينا في مساء يوم ما لزيارتها لمدة دقيقة، ومنذ ذلك اليوم أصبحت ضيفًا دائمًا في بيتهما الذي يتكون من غرفتين صغيرتين، ولكن مريحتين ونظيفتين ومضيئتين. أحيانًا في المساء أجلس بالقرب من يلينا، التي تنشغل ببعض أمور الخياطة المنزلية، وأختلس النظر إلى هيئتها الرقيقة التي تظهر من خلال مصباح ساطع، أتخيل أننا زوج وزوجة. أصابتني لمسة يديها العرضية وحفيف فستانها وابتسامتها الرقيقة برعشة عذبة. لقد عشقتها، ولم أتمكن من أن أفصح عن مشاعري ولو بكلمة واحدة. بدا هذا لي تدنيسًا لشيء مقدس. شعرت بالحرج من شيء واحد وهو أنهما لا تريدان أن أعرف العم.

إنه رجل ذو أهمية ولا يحب الطلبة، حدثتني الأم البدينة ذات الروح الطيبة كالعادة. جاءتني كلتا المرأتين عدة مرات لتناول الشاي. وكانت يلينا تنظر بسعادة إلى أدواتي للكتابة ومجموعة العملات والألبومات والكتب. سألتني ذات مرة على المبلغ الذي أحصل عليه من المنزل، وعندما أخبرتها أن والدي يرسل إليّ مائة روبل كل شهر، صمتت في البداية ثم استقامت في تمعن وقالت: أنت... غنيٌ جدًا!

بشكل عام لم تكن ثرثارة للغاية وأحبت الإنصات إليّ عندما أقرأ بصوت عال. وذات مرة وأنا أعيد قراءة محاضراتي وأنا مستلقٍ على الأريكة بدافع الملل مددتُ العبارات ورفعت نهاية كل عبارة بمقدار نصف نغمة، مثلما يقرأ الشماس في الكنيسة وأخذتُ أتلو بطريقة غاية في الحزن.

وفي النهاية ظلت شفتاي تكرران هذه الكلمة أو تلك بشكل ديناميكي، وأفكاري بعيدة. أفكر في يلينا، أتخيل هيئتها، مشيتها، انحناء حاجبيها الرفيعين الداكنين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حل الظلام، ومن مكان ما جاءت أصوات الكنيسة المبهجة المرتعشة، ومعها رائحة الربيع وبراعم الحور اللزجة. ظهرت في السماء الوردية المظلمة الداكنة جميع الأشياء بشكل رائع وبخاصة أغصان الأشجار وزوايا المباني. في غرفة يلينا وبسبب الستائر السميكة كان الجو مظلمًا، بصعوبة أراها جالسة عند النافذة منكبة على بعض الأعمال.

قالت يلينا: من الجيد أنَّك جئت. أريد أن أتشاور معك. انظر إلى هذا الـ(Z) هل يمكن إخراج حرف واحد فقط منه.

تتبعت النمط بنهاية خطاف عظمي. أسندت إحدى يدي إلى ظهر كرسيها والأخرى على الطاولة وحدقت إلى فرق شعرها الناعم الداكن. بدا لي أن جسدها ينبعث منه أيضًا رائحة شجر الحور.

- حسنًا، لماذا أصبحت صامتًا؟ سألت هي.

رفعت يلينا رأسها وضيقت عينيها اللامعتين الواسعتين. أصبت بالارتباك وأدرت عينيّ إلى شفتيها وانحنيت. اندفعت رائحة الحور إلى رأسي وخدرتني، بدا لي أن شفتي يلينا مع ذقنها امتدت إليّ، وفجأة وضعت يدي حول رقبتها وضغطت بقبلة طويلة على شفتيها.

حررت يلينا نفسها من معانقتي وقد أصبح وجهها قرمزيًا بعينيها اللامعتين.

- من أجل الرب! من أجل الرب! اتركني. اتركني. همست بإحراج.

- يلينا -سألتها بصوت متوسل- لا تدفعيني بعيدًا، كوني ملاكي اللطيف، سعادة حياتي، كوني زوجتي!

بدت مندهشة من اقتراحي للزواج، وقالت إنها فتاة فقيرة لم تتخرج في المدرسة الثانوية، وربما أسخر منها فيما بعد. ولكني كنت بليغًا ومثابرًا حتى سمعت في النهاية من شفتيها الرائعتين الموافقة التي عبّرت عنها بهمسة خجول. في تلك الليلة كتبت خطابًا طويلًا إلى والدي متحمسًا وغير منظم وصفت له كل ما جرى وطلبت منه مباركة الزواج. ومع ذلك كنت أعلم مسبقًا أن والدي الذي يعطيني الحرية الكاملة في كل تصرفاتي لا يمكن أن يجيب بأي شيء غير الموافقة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكنني لم أستطع أن أنام في تلك الليلة، أخبرني الكثير من الرجال المتزوجين في وقت لاحق (وقد شعرت ذلك بنفسي لاحقًا)، أنه بعد أن تقدم بعرض الزواج لأكثر فتاة أحبها أحسَّ على الفور بنوع من الندم على الحرية المفقودة.

لكن بعد ذلك وباستثناء الفرح الفخور الذي طغى على كياني كله، لم ألاحظ شيئًا بداخلي بل ظللت لدقائق لم أصدق فرحتي العظيمة. لم أستطع الجلوس في غرفتي، وفي حوالي الساعة الثانية ليلًا ارتديت ملابسي وخرجت إلى الشارع. لم يكن هناك ضوء في نافذة يلينا، نظرت إليها وشعرت بدموع الحنين في عينيّ.

«فلتنامي يا طفلتي، فلتنامي يا كنزي العزيز، فكرت وأنا أبتسم مع تلك الدموع الصافية، فلا أعلم أنني الوحيد الذي سيحافظ على حلمي البريء...»

ظللت أتجول بلا هدف في الشوارع المهجورة الهادئة. صورة يلينا لم تفارق رأسي. رسمت لنفسي صورًا لحياتنا المستقبلية، كل واحدة وردية أكثر من الأخرى، وكل هذه الأحلام نبيلة ساذجة. أقسم لكم لا يشوبها لثانية أدنى ظلال لأي شهوة.

يترك السحر الخاص الخفي لليالي الربيعية المبكرة ظلالًا مميزة في المدينة الكبيرة في ذلك الوقت عندما تتوقف كل حركة. يبدو الصمت العميق مريبًا، وتُسمع أصوات الخطى عالية وحادة لمسافة فرسخ كامل. ويغرق أحد جوانب الشارع في الظلام، بينما يضيء الجانب الآخر كتلًا من المنازل ينعكس على نوافذها وهج القمر الساطع، تضيء أسطح المنازل وهي تعكس ضوء القمر في شكل خطوطٍ وتبدو كما لو مصنوعة من الفضة المصقولة.

الضوء السَّاطع الشَّاحب، والظلال الزرقاء الميتة بلا حراك، والهدوء الصامت حيث خفتت الحياة الصاخبة، كل هذا يعبر عن شيء غير عادي ورائع. في بعض الأحيان تصعد فوق القمر سحابة خفيفة مثل نسيج العنكبوت وعلى الفور تشرق السماء بدرجات اللون البرتقالي. في تلك اللحظة تختفي النجوم على الفور بلونها الأزرق البارد، ثم يصبح وميضها أكثر إشراقًا، وتتلاشى الكتل البيضاء، ويختفي الوهج في النوافذ. وتمر السحب وتنطفئ النجوم وتبيض الحجارة أكثر وتبدو الظلال الممتدة على الرصيف زرقاء وسميكة.

ودون أن أشعر وجدت نفسي في أحد شوارع المدينة، الضيقة الطويلة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المستقيمة مثل السهم والمحاطة من الجانبين بأشجار الحور الهرمية العملاقة والضوء الخفيف من خلال التعريشات.

لم يوجد أحد في الشارع، فقط زوجان، رجل وامرأة، يجلسان على مقعد وظهراهما نحوي، متعانقين معًا وملتحفين بالمعطف الواسع نفسه. القمر يضيء وجهيهما، وبالتالي لم يكن بإمكاني رؤية سوى هيئتهما المظلمتين، وانعكاس الضوء الساطع من جانبهما.

كنت متأثرًا بمنظر تلك الصحبة الجميلة، ولم أرغب في إزعاج العاشقين، رغبت فقط أن أمشي أمامهما، وأخطو بحرص على العشب، وفجأة قيدني شيء مخيف بلا حراك في مكاني.

- اسمعي يا ليلي، هل أنت جادة فيما تقولين، قال صوت ذكوري بنغمة واثقة جشاء.

- جادة جدًا، يا لك من مضحك. هل أنا أسوأ من الآخرين، لكيلا يمكنني الزواج.

ثم ضحكة بصوت هادئ وشغوف لامرأة عاشقة تلتصق بعشيقها مثل القطة.

أنا أعرف هذا الصوت الأنثوي، وهذه الضحكة الصافية، لا يمكن أن أخطئ، من تجلس على المقعد هي يلينا.

- حسنًا، حسنًا، دعينا نقلْ إنَّ الأمر جاد حقًّا، -استطرد الرجل- هل تعتقدين حقًّا أنه لن يسمع من أحد عن مغامراتك؟

- دعه يسمع -أجابت يلينا بلا مبالاة- لكنه في كل الأحوال لن يسمع شيئًا حتَّى موعد الزفاف. فهو تمامًا مثل فرخ صغير، يُصدق كل ما يقال له. أتصدق، إنه يظن أن العجوز هو عمي! ويطلب أن يتعرف إليه.

- وأمك؟

- أمي غاضبة. تقول إن من الحماقة أن أفقد كنزًا مثل ذلك العجوز. إنه بدين، ذو شفتين غليظتين وكريهتين. مللت منه فهو أسوأ من الفجل المرّ. بالمناسبة يا عزيزي، -في صوتها تظهر رقة القطة المدللة- هل تحتاج إلى المال؟ غدًا سيحضره لي العجوز.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ربما. *تثاءب الرجل بكسل*. سآخذ منك بعض الروبلات. تعالي إليّ، الآن سيحل الشروق.

رحلا، وجلست على المقعد متحجرًا من الخجل واليأس وبعض من الحنين المجنون. لم يكن لدي أي فكر، أي إحساس معين في تلك اللحظات الرهيبة، كما لو أغوص في فوضى رهيبة لا اسم لها...

انتهى كلّ شيء يا سادة -أنهى الرّاوي قصته- القصة بسيطة وليست معقدة، لم أشعر فيما بعد في أي وقت في حياتي بمثل تلك الأفراح النقية ولا مثل تلك العذابات كما حدث في هذا الربيع، التي ظلت باقية على الحد بين شبابي الوردي ونُضجي الغني بالتجربة المريرة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أزهار الخريف

ألكسندر كوبرين

حبيبي، وصديقي الغاضب، أكتب الغاضب لأني أتخيل أوّلًا دهشتك، ثم استياءك عندما ستتلقى هذا الخطاب وستعرف منه أني لم أفِ بوعدي وخدعتك بعد أن سافرت فجأة من المدينة بدلًا من أن أنتظرك مساء الغد في الفندق الذي أسكن فيه كما اتفقنا. عزيزي ببساطة شديدة ربما هربت منك أو لم أفعل، ولكن بشكل مؤكد هربت من كلينا، من ذلك الشيء المؤلم، الحرج، غير المجدي الذي حتما قد حلّ بيننا. لا تتعجل في أن تتهمني بابتسامة عريضة على شفتيك بالحكمة المنجية. فأنت أكثر شخص في هذه الدنيا تعلم كيف تهجرني الحكمة في أكثر المواقف شدةً. ويشهد الله أنني حتى آخر دقيقة لم أعلم إن كنت سأرحل حقًا أم لا. وها أنا حتى الآن لست متأكدة أني سأصمد حتى النهاية مرّة أخرى أمام ذلك الإغراء الذي لا يُحتمل، على الأقل أن أنظر إليك من بعيد ولو بشكل عابر.

أنا حتى لا أدري إن كنت سأتمالك نفسي حتى لا أقفز من عربة القطار بعد الجرس الثالث بعد أن أنهي ذلك الخطاب (إن استطعت أن أنهيه). سأعطيه للعتال وأطلب منه أن يضعه في صندوق البريد في تلك اللحظة التي سيبدأ القطار فيها بالتحرك. وأتابعه من النافذة وأشعر كيف يعتصر قلبي حزنًا كما لو أنني أودعك.

اصفح عني، اصفح عن كل ما حدثتك بشأنه، عن مصبات الأنهار، عن هواء البحر، عن الأطباء، تلك الأمور التي بدت كما لو أتت بي إلى هنا من بطرسبرج. كل هذا ليس صحيحًا. لقد جئتُ لأنني فجأةً انجذبت إليك من دون أن أتحكم في نفسي، انجذبت من جديد ولو للنزر القليل لتلك السعادة الدافئة المتأججة التي تمتعنا بها في وقت ما بإفراط ومن دون اكتراث كما لو كنا قياصرة في الأساطير.

أعتقد أنك استطعت من خلال حكايتي أن تكوّن بشكل كافٍ مفهومًا واضحًا عن حياتي وسط معرِض الوحوش الهائل الذي يُسمَّى مجتمع بطرسبرج. الزيارات، المسارح، الحفلات، أيام الخميس الإلزامية، البازارات الخيرية وغيرها وغيرها، وكل هذا لا بُدَّ أن أشارك فيه كلافتة جميلة فوق أعمال الزوج الوظيفية والتجارية. من فضلك لا تنتظر مني التشدق بصغائر الأمور والفراغ والابتذال والزيف في مجتمعنا،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فأنا بالفعل لا أتذكر كيف يُحكى عن هذا في الأقاصيص. لقد انغمست في هذه الحياة ذات الرفاهية الكاملة والسلوكيات الراقية والأخبار الحديثة والعلاقات والتأثيرات ولم أمتلك القوة الكافية لكي أرفضها، وقلبي لم يشارك فيها.

يظهر أمامي أشخاص ما، يقولون كلمات ما، وأنا نفسي أفعل شيئًا ما وأقول شيئًا ما، لكن لا الأشخاص أو الكلمات استطاعت أن تلمس قلبي، وفي لحظات يبدو لي أن كل هذا يحدث في مكان ما بمعزل عنّي تمامًا، كما لو أنها في كتاب أو في لوحة وكأنها (حالة مستعصية) كما قالت مربيتي دومنوشكا في وقت ما.

وفجأة وفي وسط هذه الحياة المملة الرتيبة ظهر كالموج ماضينا العذب الحبيب. ألم يحدث أنك استيقظت في وقت ما تحت تأثير أحد تلك الأحلام الغريبة السعيدة التي بعدها شعرت طوال اليوم أنك تمشي في ثمل هانئ، ولكنها في الوقت نفسه فقيرة في المضمون لدرجة أنك لو قصصتها ليس فقط على الغريب وإنما على أقرب الناس لك فستظهر تافهة وسطحية لدرجة الضحك. يقول شكسبير وميركتسيو إن الذين يقصون أحلامهم بصورة جيدة عادة ما يكذبون. يا إلهي! يا لها من حقيقة نفسية عميقة. وها أنا استيقظت ذات مرة في الصباح بعد حلم كهذا، وقد رأيت نفسي في قارب معك في البحر في مكان بعيد، بعيد، أنت تجلس عند المجاديف وأنا مستلقية في مؤخرة القارب وأنظر إلى السماء الزرقاء. ولم يكن هناك شيء آخر. القارب يتمايل بهدوء. وبلغت السماء من الزرقة درجةً تخيلت فيها أحيانًا أني أنظر إلى أسفل في هوة بلا قاع، وتملك روحي شعور غير مفهوم ولكنه سعيد ورقيق ومتناغم، شعور جعلني أحتاج أن أبكي وأضحك في الوقت نفسه من فرط السعادة. وحينئذ استيقظت ولكن ظل هذا الحلم ملتحمًا بروحي وعلق بها تمامًا. وأصبحت دائمًا أستطيع بجهد بسيط من التخيل أن أستدعيه مرة أخرى إلى الذاكرة وأشعر معه بذلك الظل الخفيف من السّعادة التي رافقته.

يحدث ذلك أحيانًا وسط الضيوف في أثناء حديث تافه تنصت له وأنت لا تسمعه وحينئذ أضطر أن أغطي عيني بيدي لعدة لحظات حتى لا ينكشف بريقهما المفاجئ. آهٍ، كيف كنت أنجذب إليك دائمًا بقوة، وقد انبعثت أمامي تلك القصة الساحرة الفاتنة التي بدت حية وتوهج فيها حبنا تحت سماء الجنوب الدافئ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منذ ست سنوات. فجأة تذكرت كل شيء، شجارنا المفاجئ، مع الغيرة السخيفة والشكوك المثيرة للضحك وتصالحنا المَرِح الذي اكتسب بعد قبلاتنا سحرَ القبلة الأولى والانتظار من دون صبر في أماكن اللقاء والشعور بالفراغ الموحش في تلك اللحظات التي نفترق فيها في المساء، حتى نلتقي مرة أخرى من جديد في الصباح، وكم كنا نستدير عدة مرات وتلتقي أعيننا من بعيد من بين حشود الناس التي تفصل أحدنا عن الآخر والتي بدت أمامنا وردية اللون من ضوء غروب الشمس المغبر. تذكرت كل هذه الحياة المتوهجة المليئة بالسعادة الجامحة التي لا يمكن كبحها.

لم نستطع أن نجلس في أماكننا، فقد كنا ننجذب دائمًا إلى أماكن جديدة وانطباعات جديدة، كم هي رائعة رحلاتنا البعيدة في تلك العربات القديمة الضيقة المغطاة بالأقمشة غير النظيفة في مجتمع الألمان عابسي الوجوه ذوي الرقاب الحمراء المعروقة والوجوه التي بدت منحوتة بشكل فظ من قطعة من الخشب، والنساء الألمانيات النحيفات اللائي كن يحملقن باندهاش وهن ينصتن إلى ضحكاتنا المجنونة، ووجبات الإفطار التي تناولناها مصادفةً عند أحد المستوطنين المسنين الطيبين الشرفاء تحت ظل أشجار السنط في أعماق فناء صغير نظيف محاط بجدار أبيض منخفض ورمال البحر المتناثرة؟ وبشهية كبيرة ننقض على الماكريل المشوي والنبيذ المُحلَى اللاذع قاتم اللون ولا نتوقف عن فعل آلاف الحماقات اللطيفة المضحكة وتلك القبلة التاريخية الجريئة التي جعلت جميع المصطفين يستديرون في سخط بظهورهم لنا إلى الوراء. وليالي يوليو الدافئة. هل تتذكر ضوء القمر المدهش الذي لامع إلى درجة أنه بدا مبالغًا فيه ولا يُصدق. وذلك البحر الهادئ المضيء الذي تلألأت أمواجه كنسيج من الفضة وعلى صفحاته تظهر خيالات الصيادين الداكنة الذين يلقون الشباك بشكل متسق ومتناغم ويتجمعون معًا في اتجاه واحد؟

ولكن تملكتنا أحيانًا الحاجة إلى ضوضاء الحضر، إلى الضجيج، إلى الغرباء.

وبعد أن نتوه وسط حشود الغرباء، نتجول ثم نتقارب، ثم نقترب أكثر حتى ندرك قربنا المتبادل. ألم تتذكر ذلك يا عزيزي؟ أمّا أنا فأتذكر كل هفوة وأتألم لذلك، فكل شيء يعيش بداخلي وسوف يعيش إلى الأبد حتى الموت وحتى لو أردت الابتعاد،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ليس لدي القوي لذلك. ألا تتذكر أبدًا؟ ومع ذلك لا وجود لشيء. كم يعذبني الإدراك أني لن أستطيع أن أعيش ذلك مرة أخرى أو أشعر به. إن الرب أو الطبيعة -لا أزال لا أعرف مَنْ- بعد أن منح أحدهما الإنسان العقل أعد له اثنين من الفخاخ؛ غموض المستقبل، وعدم نسيان الماضي وعدم رجوعه.

بعد أن تلقيت رسالتي القصيرة التي أرسلتها إليك من الفندق، أسرعت إلي حالًا، كنت تسرع ومضطربًا، عرفت ذلك من بعيد من خطواتك السريعة المضطربة، وأيضًا قبل أن تتطرق الباب، ظللت واقفًا لفترة طويلة في الممر بالقرب من غرفتي. وأنا بدوري شعرت بالاضطراب بدرجة ليست أقل منك وأنا أتخيل في هذه اللحظة كيف تقف هناك خلف الباب وكل هذا على بعد خطوتين مني، شاحبًا، تضغط بيدك على قلبك بقوة وتتنفس بعمق وبصعوبة. ولسبب ما في ذلك الوقت بدا لي من المستحيل أني الآن سأراك بعد عدة ثوان وأسمع صوتك. لقد كنت أشعر بحالة تشبه النعاس حيث ترى الأشكال بوضوح ومع ذلك لا تسمعها، وتقول لنفسك: هذا ليس حقيقة؛ هذا حلم.

لقد تغيرتَ، وازددت رجولةً، كما لو أنَّك رشدت: فالسترة السوداء تناسبك تمامًا أكثر من بذلة الطلبة، وأصبحت سلوكياتك أكثر ثباتًا، وتنظر عيناك بثقة وببرود، أما اللحية المدببة العصرية فهي تُجمّلك. أنت وجدتني أيضًا ازددت جمالًا، فأنا أؤمن أنك قلت ذلك بشكل أصدق مما قرأته في نظرتك الأولى السريعة المتعجبة بعض الشيء. فإن كل امرأة، لو أنَّها غير يائسة وغير حمقاء، لن تخطئ أبدًا في الانطباع الذي تتركه هيئتها.

عندما جئت إلى هنا حاولت طوال الطريق وأنا في عربة القطار أتخيل لقاءنا. وأعترف أني لم أعتقد قط أنه سيغدو غريبًا مضطربًا ومحرجًا لكلينا. تبادلنا كلمات بسيطة اعتيادية عن طريقي، عن بطرسبرج، عن الصحة، ولكن كنا ننظر بأعيننا بإمعان في وجه أحدنا الآخر محاولين البحث عن ملامح جديدة تركها علينا الزمن والحياة الجديدة. لم يكن الحديث بيننا موفقًا، فبعد أن بدأته بصيغة الاحترام (حضرتك) بنغمة متكلفة مصطنعة، سريعًا ما شعرنا نحن الاثنان أنه مع كل دقيقة أصبح الأمر لنا أكثر ثقلًا وأكثر مللًا لمواصلة الحديث. فبدا كما لو يقف بيننا عائق ما غريب، ضخم وفاتر. وأصبحنا لا نعرف كيف يمكن إبعاده.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هدأ مساء الربيع وأصبحت الغرفة مُظلمة، وأردت الاتصال لأطلب إحضار مصباح ولكنك طلبت مني عدم إشعال النار، ربما ساعدتنا الظلمة على أن نتطرق في النهاية إلى ماضينا. تحدثنا عنه بتلك السخرية البسيطة اللطيفة التي يتحدث بها البالغون عن عبث الطفولة. لكن من الغريب أنه كلما حاولنا أن نتظاهر أكثر أمام أحدنا الآخر بالمرح وعدم الاكتراث، أصبحت كلماتنا أكثر شجنًا، وفي النهاية صمتنا وجلسنا لفترة طويلة، أنا في زاوية الأريكة وأنت على الفوتيه، لا نتحرك وبصعوبة نتنفس. تسربت إلينا من خلال النافذة المفتوحة لدينا همهمة المدينة الكبيرة المبهمة، وسُمِعَ صوت قرقعة العجلات والضجيج الأجش لأبواق الترام، والأجراس المتقطعة لراكبي الدراجات. وهكذا يحدث ذلك دائمًا في مساء الربيع، تصل إلينا هذه الأصوات خافتة رقيقة حزينة ومثيرة للقلق، ومن النافذة يظهر شريط ضيق من السماء شاحب بلون برونزي باهت ويوجد به خيال شديد السواد لسطح ذي مدخنة وبرج مرتفع يومض بزجاجه. لم أميز في الظلام شكلك، وإنما رأيت بريق عينيك الموجهتين نحو النافذة وبدا لي أن بهما دموعًا.

أتدري أي مقارنة طرأت إلى ذهني في هذه اللحظة عندما تملكنا الصمت محاولين استعادة ذكرياتنا العزيزة المؤثرة إلى أذهاننا؟ نحن كما لو كُنَّا قد التقينا بعد عدة سنوات من الفراق عند قبر شخص أحبه كلانا بشدة في وقت ما على حد سواء. المقبرة الهادئة... الربيع... العشب الغض في كل مكان... الزنابق المتفتحة، ونحن نقف عند القبر المألوف لنا ولا نستطيع الرحيل والتخلص من تلك الأشباح الغامضة الحزينة العزيزة بلا حدود التي تحتضننا. إن هذا الميت، هو حبنا القديم يا عزيزي!

وفجأة قطعت أنت ذلك الصمت بعد أن نهضت من الكرسي وأزحته بحدة.

- لا، مستحيل، نحن نعذب أنفسنا -هكذا كنت تصيح، وأنا أسمع كيف يرتجف صوتك بشجن- بحق الرب، فلنخرج إلى الهواء، لأني إما سأفرط في البكاء وإما سأصاب بالجنون.

خرجنا. وفي الهواء انتشرت ظلمة المساء الربيعي شبه الشفافة الرقيقة السوداء، وفيها ارتسمت بشكل غير عادي وبدقة وبوضوح أركان المباني وأغصان الأشجار وهيئات البشر. عندما اجتزنا المُتَنزَّه، استدعينا عربة يجرها الخيل وكنت أعرف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى أين تريد أن تذهب بي.

كل شيء هناك كما سبق. الميدان الكبير المغطى بالرمال الصفراء الكثيفة والضوء الأزرق الساطع للمصابيح الكهربية المعلقة، والأصوات الحماسية للأوركسترا العسكرية، والصفوف الطويلة من الموائد الرخامية، وقعقعة السكاكين، وحديث الناس الرتيب الفج، والخدم الذين ينطلقون بسرعة، كل هذا في المطعم الذي نحبه. يا إلهي، كيف يتغير الإنسان بسرعة ومن دون توقف وتظل الأماكن والأشياء المحيطة به دائمة وثابتة. وفي هذا التناقض يوجد دائمًا شيء ما حزين وغامض بلا نهاية. أتدري أنه في بعض الأحيان تصادفني مساكن كريهة، ليست فقط كريهة بل مقززة، غير معقولة، وعلاوة على ذلك فهي مرتبطة بمجموعة من الأحداث المزعجة والمآسي والأمراض. ويبدو لي مباشرة أن تغيير هذا المسكن لن يكون إلا في الآخرة. ولكن بعد أسبوع آخر من المرور بالصدفة بجوار هذا البيت والنظر إلى النوافذ الفارغة والبطاقات البيضاء الملتصقة عليها، ينقبض القلب من شعور مؤلم ومضنٍ بالندم. حقًا هنا شيء ما كريه وثقيل، ولكن على كل حال يبدو كما لو ظلت هنا مرحلة كاملة من حياتك، مرحلة لا يمكن استرجاعها.

وهكذا وكما كان من قبل تجلس الفتيات بسلال من الزهور عند أبواب المطعم. أتتذكر أنك كنت دائمًا تختار لي وردتين، زهرة الكارمن الداكنة وزهرة الشَّاي؟ عندما مررنا بجوارهن لاحظت أن يدك بحركة مفاجئة أرادت أن تفعل شيئًا ما، ولكن توقفت في الوقت نفسه، كم أنا شاكرةٌ لذلك يا عزيزي.

مررنا وسط مئات النظرات الفضولية في عريش خفيف يعلو عن البحر بارتفاع رهيب، فعندما تنظر إلى أسفل بعد أن تنحني عبر السياج لن ترى الشاطئ ويبدو أنك تسبح في الهواء. هدير البحر تحت أقدامنا، وبدا من أعلى أسود ومروعًا! وبالقرب من الشاطئ برزت من المياه حجارة سوداء مدببة، وبين الحين والحين الأمواج تتوارد إليها، وبعد أن تنكسر تغطيها بالزبد الأبيض، وعندما تتراجع للخلف، تلمع الجوانب المبللة للحجارة المصقولة بالأمواج كالدهان اللامع، وهي تعكس ضوء المصابيح الكهربية. أحيانًا يهب نسيم لطيف مشبع بالرائحة القوية الصحية للأعشاب البحرية والأسماك والمياه المالحة، التي يتسع الصدر منها وترتعش الأنوف. ويقيدنا بقوة وبشدة شيء ما سيئ وممل ومكروه... عندما جلبوا لنا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشمبانيا قلت بمزاح كئيب وأنت تصب لي كأسي:

- فلنجرب ولو بتصنع أن نرفع الكأس ونشرب هذا النبيذ الجيد الشجاع، كما يقول الفرنسيون المفعمون بالحماسة.

لا، فالأمر أصبح سيانًا لدينا، لم يساعدنا النبيذ الجيد الشجاع. وأدركت أنت ذلك، فقد أضفت تؤًا بنَفَسٍ طويل:

- أتتذكرين كيف كنا نبقى معًا من الصباح حتى المساء مخمورين من دون خمر، فقط بحبنا وسعادة وجودنا معًا؟

في الأسفل، وفي البحر، وبالقرب من الحجارة ظهر قارب وتمايل شراع كبير أبيض صعودًا وهبوطًا فوق الأمواج. وتراءى إلى السمع صوت ضحك أنثوي، وشخص ما يبدو أجنبي يصفر بدقة مع الأوركسترا نغمات رقصة «الفالدتيفليق».

كنت أنت أيضًا تتبع بعينيك الشراع، ونطقت بشكل حالم وأنت لا تصرف نظرك عنه:

- من الأفضل الجلوس في هذا القارب الآن، والرحيل بعيدًا، بعيدًا في البحر حتى لا يظهر الشاطئ، أتتذكرين ذلك في الماضي؟

- نعم، مات ماضينا...

قلت هذه الجملة عفوًا، وأنا أجيب عن أفكاري بصوت مسموع، وخفت على الفور من رد فعل غير متوقع أثارته كلماتي فيك. فلقد شحبت فجأة بقوة واستندت إلى ظهر الكرسي بسرعة، لدرجة أنه بدا لي أنك ستهوي... وبعد دقيقة قلت بصوت خافت تحول سريعًا لصوت أجش:

- كم هو غريب أن تتلاقى أفكارنا، كنت أفكر تؤًا في الشيء نفسه. يبدو لي بشكل ما قاسيًا، لا يصدق ومستحيل أني أنا وأنت وليس اثنين آخرين غريبين تمامًا عنا تبادلا الحب منذ ست سنوات بجنون وتمتعا بالحياة بأكملها وبجمالها. هذان الاثنان غير موجودين في الدنيا منذ وقت طويل. لقد ماتا... ماتا...

عدنا إلى المدينة مرة أخرى، وطوال الوقت يمرُّ الطريق عبر قرى صيفية شيدت من فيلات المليونيرات المحليين. نمر وبالقرب منا تكعيبيات متشابكة جميلة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وجدران حجرية عالية ارتفعت من خلفها في الشارع أوراق كثيفة للأشجار. كل شيء في صورةٍ رائعةٍ، البوابات الضخمة والحدائق والمصابيح الكهربية الملونة التي بدت مثل أكاليل الزهور والشرفات الفاخرة المضاءة والنباتات الغريبة الموجودة في أحواض الزهور التي تشبه القصور الفخمة. والسنط الأبيض الذي يفوح برائحته بقوة حيث يُحسُ بالرائحة الحلوة العذبة الجميلة على الشفاه وفي الفم. وأحيانًا من مكان ما تكتنفنا برودة رطبة لعدة ثوان، وتوًا نقع في دفء عطر ليلة ربيعية هادئة.

كانت الخيول تجري بسرعة، محدثة ضجيجًا عاليًا منتظمًا بدقات حدوتها. نتمايل برفق فوق ينابيع المياه ونصمت. عندما ابتعدنا ليس بكثير عن المدينة شعرت بيدك تلتف بحذر وببطء حول خصري، وتجذبني إليك بهدوء لكن بقوة. وأنا لم أقاومك لكني لم أستسلم لهذا العناق. فهمتُ ذلك وخجلت وتركتني. وبعد أن بحثت عن يدك في الظلام وصافحتها بعرفان، أجابتني يدك بمصافحة ودية معتذرة. ولكني عرفتُ أن الأنا الذكورية المهانة كانت تتحدث داخلك في هذه اللحظة. ولكني لستُ مخطئة. فقبل أن نفترق عند مدخل الفندق طلبت مني السماح بزيارتي. وحددتُ اليوم، وها هو... سامحني... لقد هربت سرًا منك.

عزيزي! إن لم يكن غدًا، فبعد يومين، أو بعد أسبوع سيحتدم بداخلنا بمنتهى البساطة شعور سيعجز أمامه الشرف والإرادة والعقل. فإننا كما لو أننا سرقنا هذين الميتين، بعد أن أعددنا سرًا كذبة مزيفة وسخيفة في ظل الحب القديم. والميتان كما لو ذكرا لنا ذلك بدقة بعد أن أسكنا بيننا الخلافات وعدم الثقة والفتور -والأفظع من ذلك- المقارنة الدائمة الغيور للماضي بالحاضر.

وداعًا، لم ألاحظ أني توجهت إليك بحرارة في الخطاب بضمير «أنت». وأنا على يقين أنه بعد عدة أيام عندما يهدأ لديك الألم الأول لعزة النفس، ستتفق معي وستكف عن الغضب من رحيلي المفاجئ.

دخل الآن من الباب البواب، ودق الجرس الأول، أنا الآن على يقين أني سأصمد أمام الإغراء ولن أقفز من عربة القطار.

يبدأ بالفعل لقاؤنا القصير في خيالي يلتحف بسحابة من الحزن الرقيق الهادئ الشاعري الخانع.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هل تعرف هذه القصيدة الرائعة لبوشكين: «أزهار الخريف أرق من الأراضي البكر الخصبة... وساعة الفراق أحيانًا أكثر حياة من اللقاء نفسه». نعم يا عزيزي، بالذات أزهار الخريف!

هل سبق لك الخروج في وقت ما إلى الحديقة في الخريف في صباح عابس ممطر؟ الأشجار؛ عارية تقريبًا تترنح وتتمايل، وعلى الطرقات تتعفن الأوراق الساقطة وفي كل مكان الموت والخراب وفوق السيقان الصفراء الميتة لأزهار أخرى تنمو نباتات «العنصيف» و«الجيوجرينى» الخريفية. ألم تتذكر رائحتها العشبية النفاذة. عندما وقفت في ذهول غريب بالقرب من الزهور ترتعش من البرد وتشم هذه الرائحة الخريفية الخالصة الحزينة وتشعر بالوحشة. كل هذا في أسى وأسف على الصيف الذي مرَّ بسرعة وانتظار الشتاء البارد بجليده وبعواء المداخن والحزن على الصيف المنصرم سريعًا من تلقاء نفسه... حبيبي، عزيزي، وحيدي! إن هذا الشعور يتملك الآن روحي تمامًا. سينقضي القليل من الوقت وستظل ذكرى لقائنا الأخير لك رقيقة حلوة حزينة ومؤثرة، وداعًا. أقبلك في عينيك الذكيتين الجميلتين.

حبيبتك «ذ».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

افتتان

ألكسندر كوبرين

ألم تمل حتى الآن من ملاحقتي بذلك السؤال نفسه؟... وألم تزل تعتبر نفسك صديقي المخلص... وهل يبلغ الأصدقاء المخلصون من الجرأة ما يجعلهم يسألون امرأة عمن أحبت في حياتها؟ ما السبب؟ هل هي الغيرة؟ آه. آه. آه! ألا تخجل! ألا تتذكر اتفاقنا، أنْ عند أول تلميح منك بمشاعر المودة، سأنهي علاقتنا، وأعلن الخصومة بيننا؟

وعلى أيٍ حال... فلتقلب الأخشاب في المدفأة، ولأن الأمر قد وصل إلى هذا الحد، فسأقص عليك قصة حبي الأول الدرامية الكوميدية. ولكن عليك مسبقًا أن تعدني ألا تضحك... فذلك يمكن أن يحزنني. بداية القصة رومانسية للغاية. فلتتخيل حفلًا للمجتمع الراقي، وصالون تغمره الأضواء، وعددًا من النساء يرتدين فساتين تكشف عن جيوبهن بصحبة رجال يرتدون سترات مطرزة ومعاطف طويلة فارهة، وفجأة على المنصة التي تحيطها الخضرة من كل جانب يظهر «هو» أعلى من ذلك الحشد من رؤوس البشر. خصلات شعره الأسود المُجَعَّد تنسدل على كتفيه، وعيناه السوداوان المخمليتان الخارقتان تنظران إلى الأمام بفخر يشوبه البرود، ويده، الطويلة، الأنيقة، يد الفنان الرائعة تمسح بعدم اكتراث سطح الكمان بالمنديل، ثم تلقي بهذا المنديل بعدم اكتراث أيضًا على البيانو. ساد الهدوء... وأخذ يداعب الأوتار الخجلة... وأخذ القلب يتجمد بشيء من الوجل اللذيذ عندما اقتحمته الأصوات الأولى بثباتٍ ولطف. لم تعد أمامي لا القاعة المضيئة، أو وصايا أمي، أو الجيران الصارمين، وإنما بقيت فقط الأصوات والعينان الموحيتان، الشغوفتان تارة، والمتوهجتان بنيران حزينة تارة، والمتهللتان تارة.

تخيل بعد ذلك فتاة معهد بريئة، شقت طريقها إلى الحياة برأسها المليء بهراء الرومانسية، والتعطش لشيء ما سامٍ وغير عادي... خلاصة القول، اتضح لك الأمر الآن. أليس كذلك؟ كان عازف الكمان نجم الساحة في المجتمع الراقي، ذلك المجتمع الذي يندفع وراء كل ما هو جديد ومميز ومثير للضجة. أطلقوا عليه «باجانيني الثاني» و«ساراساتي الثاني» ويتهافتون على دعوته إلى الأمسيات، ويتوددون له. وكانت السيدات يجدن فيه انجذابًا جهنميًا.

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

وبعد أن نزل من المنصة طفق يتصرف مع الناس بشكل مثالي يبعث على الإعجاب. كم مرة تأملتُ هيئته الفخور المتأملة، وبشيء من الفضول المضني أخذت أفكر في حياته العاطفية الخاصة، في هؤلاء البشر الذين يحيطون به، في أسرِه لعدد كبير من قلوب النساء. وكنت أعلم من الكتب أن العظماء مقدر لهم أن يعيشوا في وحدة أبدية في هذا العالم المليء بالضَّجيج. وأخذت أحلم... وعلى أية حال ما أكثر الهراء الذي يملأ رأس فتاة عذراء حالمة. وذات مرة قررت أن أكتب له خطابًا (بالطبع بتوقيع مستعار مع طلب الرد إلى مكتب البريد «تحت الطلب» وهو خطاب إعجاب وحماسيَ. رد على خطابي، واستمرت بيننا المراسلات، التي زادت من اقتناعي تمامًا بصدق كل ما كان يكتب. صديقي الفنان ينظر إلى الحياة بعناء وازدراء، ولم يتسالم مع ابتذال البشر وتفاهتهم أو مع الكراهية وعدم إدراك روح الإبداع، ومع ذلك استجاب لقلب امرأة مرهف الحس، كان يقدره، ولا شيء يقال إلا أن هذا القلب المرهف الحس هو قلبي أنا.

في الصيف توقفت المراسلات، لأننا سافرنا للاستجمام في استراحتنا الريفية. اختارت أمي عن عمد مكانًا بعيدًا للغاية عن المدينة، فرأت أنه بعد انتهاء فصل الشتاء المضني يجب أن أجدد نشاطي بهواء الريف النقي. بالإضافة إلى أنني أعتقد أن الدافع الاقتصادي كان له نصيب في هذا القرار.

أمَّا ضيفنا اليومي فهو الجنرال في سلاح الفرسان ذو المستقبل المشرق، الأعزب الوقور ذو الأربعين عامًا. رجل مسلٍ وودود للغاية. ولم أرَ فيه شائبة سوى أنه في حاجة إلى أن يخفف من الصبغة البنفسجية في شعره وحاجبيه.

كان الجنرال يحمل لي الورد والحلوى.

تحدثت أمي أكثر من مرة بدهاء واضح عن أنه كم من الجيد أن يُقدِّم الجنرال عرضًا للزواج وبخاصة لفتاة ليس لديها شوار كبير. وعندما وصف الجنرال نفسه بالعجوز في أثناء حديثه وهو يضحك ضحكة مدوية، اعترضت أمي بغضب واحتدام. لكن قلبي كان مشغولًا بالفنان الشيطاني. «إما هو أو لا أحد»، هذا ما قررته مع نفسي بذلك العناد الذي يتملك بالدرجة الأولى البطلات الرومانسيَات ذوات السبعة عشر عامًا. وربما لَثبتُّ على هذا القرار، لولا أن حدثت واقعة صغيرة عكرت صفو الأمور. فذات مرة ونحن في طريق العودة إلى البيت، بعد أن تجولنا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في البستان وشربنا الحليب: أنا وأمي والجنرال، تخلفت عنهما، ولم يلحظا ذلك، لأنهما كانا مشغولين كليةً بالتفكير في درجة القرابة التي تربط بين ابن عم الجنرال وصهر أمي.

عندما مررت بالقرب من بيت ريفي صغير كان غاطسًا وسط أشجار السنط الخضراء الكثيفة، وصل إلى سمعي صوت مألوف أصابني بالاضطراب. اشتد بي الفضول (رغم أن ضميري كان يوخزنني) إلى أن توقفتُ واختبأتُ بين الشجيرات الخضراء، وتنصتُ وأخذت أتابع. يا إلهي! لقد رأيت أول ما رأيت معبودي، حبيبي الشيطاني، العبقري الفخور، «باجانيني وسارساتي» مغًا. يجلس أمام الشرفة، بالقرب من طاولة خضراء مستديرة، وعلى ركبتيه طفل يبلغ حوالي ثلاثة أشهر أو أربعة، بوجه تائه عبوس ورأس يتأرجح في جميع الاتجاهات، وأمامه امرأة سمينة، من دون صدرية، ترتدي ثوبًا رماديًا، عليه شحوم عند الصدر، جلست تطهو المربى على موقد نقال. وهناك أربعة أطفال -ثلاثة أولاد وبنت واحدة- تجمعوا حول القدر الذي يتصاعد منه البخار، ومن وقت لآخر يلعقون خلسة الملاعق عندما يبرد الشراب عليها. وتكمل المشهد امرأتان أخريان تجلسان بالقرب من تلك الطاولة الخضراء المستديرة: عجوز في الثمانين من عمرها، تحيك جوربًا، وامرأة حدباء، أقرب إلى فتاة ذات وجه كالعصفور، وتشبه كثيرًا محبوبي «بجانيني» تُقرّب تارة وتبعد تارة كوبًا برّاقًا من عينيّ الرّضيع لتجعله يصرخ ويطلق الفقاعات من فمه ويمد يده إلى الأمام، بينما تجلس المرأة السمينة والعجوز صاحبة الجورب و«بجانيني» نفسه يتابعون تلك المداعبة البريئة وهم يبتسمون ابتسامات مبهجة، ابتسامات الأب السعيد والأم الراضية والجدة التي تحظى في البيت بالاحترام. وفي أثناء ذلك كان حبيبي الموسيقار الشيطاني يمسح بعناية وحب بخرقة متسخة بعض الشيء شفتي طفله المبتلتين وأنفه.

وفجأة، أدار الموسيقار رأسه وهو يذعن لتلك القوى الجاذبة لنظراتي الحادقة. لم أرَ إلا وجهه وقد اصطبغ بلون داكن، ويديه وهي تمتد بشكل غريزي ليعطي الطفل للفتاة الحدباء. أما ما حدث بعد ذلك، فلا أعرفه ولا أتذكره... لقد انطلقت أركض، وأركض وأركض، وأنا أحمل في قلبي ألمًا لا يحتمل من الخجل والأسف والغضب.

ومن المؤكد أنك عرفت بالطبع نهاية القصة. فبعد ستة أشهر أصبحت زوجة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جنرال سلاح الفرسان الوقور.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هيا

ألكسندر كوبرين

هذه الصرخة المتقطعة الآمرة هي الذكرى الأولى للآنسة نورا من طفولتها المظلمة الرَّتيبة الشَّريدة. هذه الكلمة التي نطقها لسانها الضعيف الرضيع قبل كل الكلمات الأخرى، وحتى في الأحلام دائمًا ما ينهض في ذاكرتها عقب تلك الصرخة برودة ساحة السيرك ورائحة الإسطبل وركض الخيل والسوط الجاف الثقيل، والألم الحارق لضرباته التي يبتلعها الخوف اللحظيّ.

- هيا!

الجو بارد ومظلم في السيرك الفارغ. من مكان ما تترك أشعة الشمس الشتوية التي نفذت من خلال القبة الزجاجية، بقعًا ضعيفة خافتة على المخمل القرمزيّ والصندوق المُذهب وعلى دروع روءس الخيول وعلى الرَّايات التي تزين الأعمدة، حيث تنعكس أضواء المصابيح الكهربية على الزجاج المصنفر وتنزلق على القضبان الأفقية وعوارض الجمباز القائمة على ارتفاع رهيب، حيث تختلط الآلات والأحبال. كادت العيون ترى الصفوف الأولى من المقاعد، بينما المقاعد غارقة تمامًا في الظلام.

يحين موعد العمل اليوميّ. يجلس خمسة أو ستة من الفنانين يرتدون معاطف وقبعات من الفرو في صفّ المقاعد الأوَّل بالقرب من مدخل الإسطبل، ويدخنون السيجار كريه الرائحة، وفي منتصف الساحة يقف رجل ممتلئ الجسم قصير الساقين ذو قبعة علوية وشارب أسود مصفف بعناية على شكل خيطٍ، يربط حبلًا طويلًا حول خصر طفلة ذات خمسة أعوام تقف أمامه وترتعش من الاضطراب والبرد.

يصهل الحصان الأبيض الضخم الذي يقوده الحوذي على طول الحاجز ويهز رقبته المُقَوَّسة، ومن منخاريه يتطاير بخار أبيض سريعًا. في كل مرة يمر بجوار الحصان رجل يرتدي قبعة، يخفض الحصان بصره إلى السوط الذي يخرج من إبطه، ويصهل بقلق، يسحبه الحوذي خلفه، وتسمع نورا الصغيرة تلك الحركات المضطربة للخيل من وراء ظهرها وترتجف أكثر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تمسك بها يدان قويتان من خصرها وتلقيان بها بسهولة على ظهر الحصان، على الفراش الجلديّ الواسع. تندمج في تلك اللحظة الكراسي والأعمدة البيضاء والستائر المصنوعة من خشب الساج عند المداخل. كل هذا يندمج في دائرة واحدة متنافرة، تركض سريعًا في مواجهة الحصان، تتجمد يداها عبثًا، وتتشبثان بتشنج بشعر الحصان المتموج، وتنغلق عيناها بإحكام، وقد أعماها الوميض المحموم للدائرة المضطربة. يمشي رجل يرتدي قبعة داخل الحلبة ويمسك بنهاية سوط طويل عند رأس الحصان وينقر به بصوت خافت؟

- هيًا!

وها هي تقف في وسط ضوء المصباح تحت قبة السيرك مرتدية تنورة قصيرة، وذراعاها النحيفتان مكشوفتان وشبه طفوليين على العارض الذي يتأرجح بقوة، وعلى هذا العارض يتدلى رأسها لأسفل عند قدميها، بعد أن ثبتت ركبتيها على قضيبٍ. يقف رجل آخر مكتنز يرتدي ثيابًا ورديًة وترترًا مُذهبًا بشكل لولبي وحاد. ها هو يرفع يديه إلى أعلى وينشرهما وينظر في عينيَ نورا بنظرة حادة مثبتة وتنويمية لرجل الأكروبات... ويصفق بيديه، أما نورا فتؤدي حركة سريعة للأمام لكي تندفع إلى أسفل إلى هذه الأيدي القوية التي لا تعرف الشفقة. (وبهذا الخوف يتنهد توًا مئات المتفرجين!) لكن فجأة يبرد القلب ويتوقف عن الخفقان من الرعب. وتشد هي فقط بقوة الحبال الرفيعة، وترفعها مرة أخرى الأيدي القوية التي لا تعرف الشفقة، وتصبح نظرة رجل الأكروبات أكثر حدة. وتبدو الساحة في الأسفل تحت أقدامهم بلا هاوية.

- هيا!

تشرع في استعادة توازنها وتجاهد لتلتقط أنفاسها، إلى أعلى «الهرم الحيّ» من ستة أشخاص، تنزلق وتلتوي بجسدها المرن مثل الحية بين درجات سلم أبيض طويل يمسكه شخص من أسفل على رأسه. تنقلب في الهواء وتُلقى على قدمي أحد لاعبي السيرك القويتين المرعبتين مثل الفولاذ في «ألعاب إيكاريان» وترتفع عاليًا عن الأرض على طول سلك رفيع مهتز يقطع القدم بصورة لا تحتمل... في كل مكان، الوجوه الجميلة الغبية نفسها، الفواصل المكسوة، الكوكا المخفوقة، الشارب الملتف، رائحة السيجار والجسم البشريّ المتعرق، وفي كل مكان الخوف نفسه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والصرخة القاتلة المحتومة نفسها، الشيء نفسه يسري للناس والخيول والكلاب المُدرَّبة.

- هيا!

تجاوزت لتوها الستة عشر عامًا، وكانت جميلة جدًا عندما سقطت ذات يوم في أثناء أحد العروض من شريط أفقي هوائيَ، وطارت بالقرب من الشبكة، وسقطت على رمال الحلبة، حملوها على الفور وهي فاقدة الوعي خلف الكواليس وهناك وفقًا لعادات السيرك القديمة هزوا كتفيها بكل قوتهم لإعادتها إلى وعيها. استيقظت وتأوهت من الألم الذي سببه لها ذراعها المخلوع. «الجمهور قلق وبدأ في التفرق،» أخذوا يقولون لها من حولها: «اذهبي وأظهري نفسك للجمهور!» مشت خطوتين فصرخت وارتعدت من معاناة لا تطاق. وهنا أمسكت بها عشرات الأيدي ودفعتها بالقوة خلف ستائر المدخل أمام الجمهور.

- هيا!

في هذا الموسم، عمل المهرج مينوتي ضيفَ أداءٍ في السيرك، لم يكن مهرجًا بسيطًا بل رخيصًا وفقيرًا، يرقد على الرمال، ويتلقى صفعات على وجهه، لم يأكل أي شيء منذ أمس، لكن استطاع جذب الجمهور طيلة الحفل بنكات لا تنضب، هو مهرج مشهور، أول مهرج منفرد ومقلد شهير على مستوى العالم ومدرب مشهور عالميًا حصل على جوائز فخرية، وما إلى ذلك. ارتدى سلسلة ثقيلة من الميداليات الذهبية على صدره، وأخذ مائتي روبل عند خروجه، وكان فخورًا بحقيقة أنه لم يرتدِ لمدة خمس سنوات أي ثياب باستثناء الملابس المموجة، وشَعَرَ حتمًا بعد الحفلات أنه مكسور ومملوء بالمرارة، وظلَّ يقول لنفسه: «نعم! نحن مهرجون، يجب أن نجعل الجمهور يضحك حتى الاكتفاء.» في ساحة السيرك، يغني مقاطع قديمة من الأغاني أو ينشد شعرًا من تأليفه تكلفًا وتظاهرًا، أو يبرز أفكار وسلوكيات معينة، الأمر الذي يجعل الجمهور عمومًا ينجذب إلى السيرك من خلال الدعاية المتهورة، مما قد يحدث انطباعات غريبة ومملة وغير مناسبة.

لكن في الحياة يبدو انتهازيًا وكثيرًا ما يحب التلميح إلى علاقاته بالفتيات الجميلات بشكل غير عادي، والثريات بشكل رهيب، ولكنهن يشعرن بالملل تمامًا منه.

عندما تعافت نورا من إصابة ذراعها المخلوعة، ذهبث للمرة الأولى إلى السيرك في العروض التحضيرية الصباح، وهنا أمسك مينوتي يدها وصافحها، وبعينيه المبتلتين المتعبتين وصوته الوهن سألها عن صحتها. ارتبكت، احمرّ وجهها وسحبت يديها، وفي هذه اللحظة تحدد مصيرها.

بعد أسبوع وبعد أن قضي مع نورا عرضًا مسائيًا، طلب منها أن تأتي معه لتناول العشاء في أحد مطاعم الفنادق الكبرى الذي يتردد إليه دائمًا أشهر المهرجين على مستوى العالم.

هناك غرف منفصلة في الطابق العلويّ، صعدت نورا معه إلى أعلى، وتوقفت لحظة بسبب التعب وبسبب التوتر وبسبب التردد الحكيم، لكن مينوتي أمسك بمرفقها بقوة، وظهرت في صوته بقوة الغريزة الحيوانية ونبرة الأمر القاسية للاعب الأوكروبات عندما همس:

- هيا!

ذهبت... وقد رأت فيه شيئًا غير عاديّ، ووجدت فيه مخلوقًا استثنائيًا، كما لو كان ربًا... لكنها على استعداد أن تلقي بنفسها في النار، لو أمرها بذلك.

ظلت ترافقه على مدار العام من مدينة إلى أخرى. تقوم على حراسة مقتنياته الثمينة وميدالياته خلال نزهاته، تساعده في ارتداء جواربه وخلعها وتعتني بخزانة ملابسه وتساعده في تدريب الجرذان والخنازير وتمسح وجهه بالكريم البارد والأهم من ذلك أنها تؤمن بحماسة الوثنيّ في عَظَمةِ عالمه. عندما يبقيان بمفردهما، لم يجد شيئًا يمكن أن يتحدث إليها عنه لكنه يتقبل مداعباتها الشغوف كرجل يشعر بالملل بصورة مبالغ فيها، إنّه منهك، لكنه سمح لنفسه بأن يصير محبوبًا بشكل لطيف.

بعد عام سئم منها تمامًا. تحولت نظراته المستريحة إلى إحدى شقيقات ولسون التي كانت تقوم برحلات جوية. الآن لم يعد يخجل من نورا على الإطلاق. يضربها على خديها أمام الفنانين والمهرجين، وكانت تتحمل كل هذا بهدوء وخضوع مثلما يتقبل كلب عجوز ذكي ومخلص الضربَ من صاحبه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في النهاية، ذات مرة ليلًا بعد العرض، الذي وُجّه فيه الاستهجان إلى المدرب الأول في العالم بسبب شدة ضربه بالسوط لأحد الكلاب، قال لنورا بشكل مباشر أن تبتعد عنه وتخرج إلى الجحيم. أطاعته لكنها توقفت عند باب الغرفة واستدارت إلى الوراء بنظرة توسل، حينئذ ركض مينوتي سريعًا إلى الباب وفتحه بركلة مسعورة، وصاح:

- هيا!

لكن بعد يومين انجذبت مرة أخرى إلى صاحبها مثل كلب مدفوع ومطرود. كل شيء اسوَّد في عينيها، عندما قال لها عامل الفندق بابتسامة وقحة: لا يجب أن تذهبي إليه، إنه في الغرفة، وهو مشغول مع السيدة الشابة.

صعدت نورا إلى الطابق العلوي، ووقفت بشكل لا لبس فيه أمام باب الغرفة التي أقامت فيها منذ سنة مع مينوتي. نعم إنه هناك، حيث عرفت صوته الشهير المنهك الذي نادرًا ما تقطعه الضحكة السعيدة للمرأة الإنجليزية ذات الشعر الأحمر. فتحت الباب بسرعة.

ورق حائط قرمزي وذهبي، ضوء ساطع من شمعدان، بريق الكريستال، جبل من الفواكه والزجاجات في مزهريات فضية، مينوتي مستلقٍ على الأريكة من دون سترة، وويلسون ترتدي صدرية مفكوكة الأزرار ورائحة العطر والنبيذ والسيجار والمساحيق، كل هذا أذهلها في البداية؛ ثم هرعت إلى ويلسون ولكمتها عدة مرات في وجهها. صاحت الأخرى ونشب العراك معها.

عندما نجح مينوتي بصعوبة في فك الشجار بين المرأتين، ارتمت نورا أمامه على ركبتيها، وأخذت تقبل حذاءه وتتوسل إليه أن يعود إليها، لكن مينوتي دفعها بصعوبة بعيدًا عنه، وضغط على رقبتها بأصابعه القوية وقال لها:

- إذا لم تغادري الآن، أيتها القمامة، فسأطلب من الخدم إخراجك من هنا!

نهضت وهي تتنهد وتهمس:

- آه.. ها! إذن في هذه الحالة، في هذه الحالة...

وقعت نظراتها على النافذة المفتوحة، وبسرعة وخفة مثل لاعبة الجمباز

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المحترفة، وقفت على حافة النافذة وانحنت إلى الأمام وأمسكت بيديها كلا الإطارين من الخارج.

العربات تتدحرج عميقًا من أسفل وكأنها حيوانات صغيرة وغريبة والأرصفة تلمع بعد المطر وانعكاسات ضوء مصابيح الشوارع تتمايل فوق البرك.

بردت أصابع نورا وتوقف قلبها عن النبض من الرعب اللحظي... ثم أغلقت عينيها وتنفست بعمق، ورفعت يديها فوق رأسها وكبتت ضعفها بجهدها المعتاد، صرخت وكأنها في السيرك:

- هيا!...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القُبلة المنسية

ألكسندر كوبرين

لقد حدث هذا في الأزمنة البعيدة التي أصبحت منذ القدم أسطورة في نظرنا. سطع القمر في غرفة نوم ابن الملك الصغير من خلال المصراع المفتوح للنافذة القوطية الضيقة والطويلة ذات التعريش الحديدي الفاخر، سقطت أشعته على كل شيء في شكل بقع فسفورية رقيقة. ومن خلال تلك الأشعة ظهرت بشكل خفي وحاد من خلال الظلمة الأنسجةُ المتشابكةُ للسجادةِ الفارسية والظهر المرتفع المستقيم للكرسي المنحوت والفراء الفضي لجلد حيوان على الأرض، وطيات الدانتيل المجعد، واللؤلؤ المرصع على جعبة من الدُمى والسهام ذات الأطراف المذهبة البازخة منها.

طال الليل، والبقع المضيئة على الأرض تنتقل من مكان إلى مكان بشكل غريب ومنتظم. وفي نهاية الأمر أضاءت فراش الأمير. استلقى وهو يمد يديه عاريًا واصطبغ وجهه كله باللون القرمزي وابتسامة على شفتيه الأرجوانيتين شبه المفتوحتين. عندما سقطت أشعة القمر على وجهه، تنهد في نومه واستدار بظهره.

وفي أثناء تدفق أشعة القمر كانت جنيات ليل الربيع الجميلة تستحم، جنبًا إلى جنب متشابكات الأيدي في رقصة دائريَة، سرعان ما دُرن فيها وانفصلن في سلسلة طويلة. وعندما سطع القمر بدت أجسادهن شفافة تمامًا. انساب شعرهن السائب على أكتافهن، أخذن يبتسمن ويعانق بعضهن بعضًا، يرتفعن ويصعدن في تيارات الضوء.

Telegram:@mbooks90

لاحظت إحداهن الأمير الصغير النائم، تركت صديقاتها واقتربت من سريره والتفت حوله وقبلت شفتيه شبه المفتوحتين. ارتعش واستيقظ من نومه ومدَّ يديه لكنَّ الجنية قد ابتعدت بالفعل، حيث جَذَبتها صديقاتها الجنيات الطَّائشات.

كبر الأمير، ونظر إليه الملك العجوز وهو يهز رأسه الأشيب حزينًا، فوريث العرش المستقبلي لا يحب الصيد أو الرماية أو أغاني الحرب القتالية. بل ظلَّ يقضي وقته مع سيدات القصر ويستمع إلى أحاديثهن، واضعًا إحداهن ذات الشعر المجعد على ركبتيه. دائمًا يبحث عن مداعبتهن ويستمتع بلمس أيديهن. «لن يصبح ملكًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حقيقيًا،» هكذا ظل يهمس والده متفكرًا. «لن يصبح ملكًا حقيقيًا،» هكذا ظل يردد وراءه رجال القصر.

مات الملك العجوز وورث ابنه العرش، لكنه لم يواصل الغزوات الحربية لأسلافه، ولم يمارس صيد الخنازير البرية والثيران والدببة، لم يقم ببطولات رائعة، لم يقضِ الليل مع حاشيته وهو يحتسي كأسًا ذهبية من النبيذ العتيق في الضوء الأحمر لمصابيح القطران. عاش مدللًا وعاطلًا. ودائمًا يحيط نفسه بأجمل نساء البلد وينتقل من واحدة إلى أخرى ومن عناق إلى عناق ومن شفاه إلى شفاه. كان جميلًا، وطويلًا، وممشوقًا مثل الفتاة الجميلة ذات العينين السوداوين المتأملتين الواهنتين اللتين لا تقاومان.

لكن الملك الشاب لم يشعر قط بطعم السعادة. هناك حزن خفيٌ لم يبرح قلبه، وينعكس على جبينه رغمًا عنه. وبروح نهمة ظل يبحث عن شيء ما غامض في أحضان النساء، شيء ما عزيز ومنسي.

وبدا له أحيانًا عند لقاء جميلة جديدة أن شيئًا ما منسيًا أخذ في الظهور أمامه بشكل جلي، وشرع بشغف يسعى إلى تلك الجميلة، كما تسعى الزهرة إلى أشعة الشمس... شعر بالفعل أن شيئًا ما غامضًا يتخذ أشكالًا ملموسة، ويأخذ في سماع دعوات ونداءات وهو حزين مضطرب... ثم يتجمد من أول قبلة... ويختفي السر مرة أخرى من ذاكرته من دون أثر.

أنهك البحث عن المستحيل روحه في نهاية الأمر. ظل يشحب ويضعف كل يوم. لم تضيء عينيه الغائرتين الابتسامةُ مرة أخرى... وذات مرة ليلًا وهو مستلقٍ على فراشه تحت مظلة فاخرة متوجة بتاج، شعر بقرب الموت وطفق يتذكر حياته كلها، ويتذكر كل شيء ما عدا الشيء المنسي: «هل سأموت حقًا، من دون أن أتذكر؟»، همس وهو يفرك في يديه ويسرع إلى فراشه وهو يحتضر.

في تلك اللحظة سقط ضوء القمر الساطع على عينيه، وكانت هناك يدان عاريتان تلتفان حول رقبته وشفتان ترتعشان من الضحك المبهج وتضغطان على شفتيه.

تذكر الملك ومد يديه تجاه الشكل الطائر... لكن يديه سقطتا بلا حياة. وبدا على وجهه الميت تعبير الرضا الذي لا يُوصف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رواية عاطفية

ألكسندر كوبرين

صديقي العزيز!

جئت إلى هنا من جديد في الربيع الماضي على شاطئ البحر إلى مصحتنا، حتى أنني حصلت على الغرفة نفسها، فقط تغير ورق الحائط بها في الشتاء، لذلك لا تزال رائحة الغراء تفوح قليلًا. لا أدري لكني مثل الآخرين، فإن هذه الرائحة تثير لدي حزنًا خفيفًا لطيفًا وترتبط بشكل وثيق بذكريات الطفولة. ربما بقيت لدي منذ فترة الدراسة في المعهد. أتذكر كيف اعتادوا إحضاري إلى هنا بعد إجازة صيفية طويلة. وأنت تمشي في المهاجع المألوفة والفصول والممرات تشم في كل مكان رائحة الغراء والطلاء الطازج والجير والدهان اللامع وتشعر بحزن رهيب أنك تتخطى جانبًا جديدًا من جوانب الحياة وتندم بشكل غامض على ما مضى وأصبح في ذلك الجانب رماديًا اعتياديًا وغير سار لكن عزيزًا إلى ما لا نهاية لأنه رحل ولن يتكرر أبدًا أبدًا.

آه، إنه الماضي! يا له من سحر غامض لا يقاوم يقبع داخل أرواحنا! حقًّا يا عزيزي أنا أجرؤ على الكتابة لأنني اليوم منذ الصباح أشعر بأنني تحت وطأة ذكريات الأعوام الماضية.

إنني أجلس في اللحظة الراهنة خلف طاولة الكتابة، لكن بمجرد أن أرفع عيني أرى البحر، ذلك البحر الذي سبحنا فيه معًا، أتتذكر؟ كنا في حالة حب شاعرية، وحتى لو لم أنظر، فقد شعرتُ بذلك. يبدو كما لو أنَّه ارتفع إلى أعلى مثل حجاب أزرق داكن مستوٍ إلى منتصف نافذتي المفتوحة على مصراعيها وفوقه سماء زرقاء صافية وهادئة تمامًا وتحت النافذة نمت شجرة تفاح، لها فرع مورق للغاية ومغطى بالكامل بأزهار رقيقة تبدو بيضاء شفافة في أشعة الشمس ووردية بعض الشيء في الظل وتبدو أنها تنظر إليّ في غرفتي.

عندما يأتي نسيم خفيف من البحر، فإنه يتأرجح بوهنٍ، كما لو أنَّه ينحني إليّ بتحية ودية هادئة وبصعوبة يسمع حفيفًا من المصراع الأخضر الشبكي. أنظر ولا أستطيع الاكتفاء من النظر إلى تلك الحركات السلسة للغصن الأبيض المنثور

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالزهور والمرسوم برشاقة وسحر ناعم على زرقة البحر العميق القوي والمبهج... وبكل بساطة أرغب في البكاء من التأثر أمام ذلك الجمال البسيط.

مصحتنا تغرق (أعتذر عن المقارنة القديمة) في الأمواج البيضاء لأشجار الكُمثرى والتفاح واللوز والمشمش المزدهرة.

يقولون على ألسنة السكان الشركس السابقين إن هذه القرية الساحلية الساحرة تُسمَّى «العروس البيضاء». يا له من مسمى جميل وصحيح! فالشعر الشرقي ينسج فيها بلغة مزخرفة، مثل «أنشودة الأناشيد» للملك سليمان.

غُطيت ممرات حديقتنا بكثافة بالأوراق البيضاء الساقطة من الأشجار، وعندما تهب الرياح يبدو كما لو أنَّ الثلج يتساقط ببطء على شكل رقائق كبيرة من الأشجار إلى الأرض وتتطاير تلك الرقائق الثلجية الخفيفة إلى غرفتي، تتناثر على طاولة الكتابة وتستقر على ثوبي وشعري... لا أستطيع ولا أرغب في أن أبتعد عن الذكريات التي تثيرني وتدور في رأسي مثل النبيذ المعطر القديم.

كان هذا في الرَّبيع الماضي، في اليوم الثالث أو الرابع بعد قدومك إلى المصحة، ذلك الصباح الهادئ البارد المشرق نفسه، جلسنا في الشرفة الجنوبية، أنا أجلس على كرسي هزاز مغطى بقماش أزرق (أتتذكر ذلك الكرسي؟) وأنت تجلس على سور الشرفة متكئًا على عمود الزاوية وتلف ذراعك حوله؟ يا إلهي! والآن وبعد أن كتبت تلك السطور، توقفت وأغلقت عيني بيدي لعدة لحظات، ومرة أخرى وبوضوح غير عادي يتمثل وجهك أمامي حينذاك، نحيلًا شاحبًا بملامح رفيعة ورقيقة وخصلة شعرك الداكن التي تتدلى بشكل عفوي على جبينك الأبيض، وعيناك الحزينتان الغائرتان. حتى أنني أتخيل تلك الابتسامة الحائرة الشاردة التي بصعوبة كانت ترتسم على شفتيك عند الكلام، وتنظر متأملًا إلى أوراق الزهور البيضاء المتساقطة؛ إنها أزهار التفاح تتناثر.

كان الربيع في بدايته. لماذا يثير الازدهار السريع والكثيف للربيع في الجنوب لدي شعورًا مؤلمًا بالكآبة وعدم الرضا؟ يبدو أنه في الآونة الأخيرة مثل الأمس شاهدت في اضطراب كيف تتساقط أول براعم واليوم تتطاير الأزهار حولها وأنت تعرف أنه سيحل خريف بارد غدًا. ألا يشبه هذا حياتنا؟ منذ صغرك وأنت تعيش مع الأحلام وتفكر أن شيئًا رائعًا ومثيرًا سوف يحدث، ثم فجأة تستيقظ وترى أنه لم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يتبق لك سوى الذكريات والشوق إلى الماضي. أنت نفسك لا تستطيع أن تقول، في أي وقت مرت حياتك الحقيقية الكاملة الجميلة.

أترى كيف أتذكر كلماتك جيدًا، كل ما هو مرتبط بك محفوظ في روحي بصورة واضحة ومفصلة وأقدره وأحبه وأستمتع به مثلما يتمتع البخيل بذهبه، وأعترف أنني أتيت إلى هنا لأنني أرغب في أن أرى مرة أخرى ولو من النافذة قطعة من بحرنا وسمائنا وأشعر بالرائحة الرقيقة لشجرة التفاح المزدهرة وأسمع في المساء نقيق الجنادب... وأعيش إلى ما لا نهاية تلك الذكريات الساذجة الشاحبة التي قد يسخر منها الشخص الصحيح، آه، يا لهؤلاء الأصحاء!

مع شهيتهم النهمة للحياة، ومشاعرهم القوية إلى ما لا نهاية التي تتحملها أجسادهم القوية وأرواحهم المسرفة من دون اكتراث، فإنهم لا يمكن أن يتخيلوا أنفسهم مثل هؤلاء من أصحاب المشاعر المعقدة والحالات المزاجية الدقيقة التي نعانيها نحن باستمرار كما قُدّر لنا منذ يوم ميلادنا أن نعيشها على وتيرة واحدة في المصحات والمستشفيات.

كل شيء هنا كما في السابق، أنت فقط غير موجود صديقي العزيز ومعلمي. بالطبع قد تخمن أنني تلمست الأخبار من الجريدة بأنك تعافيت وعُدتَ مرة أخرى لممارسة عملك في القسم. إن صديقنا العزيز الطبيب البهيج أكد لنا هذا وهو يشعر بالرضا تمامًا. لا شك أنه ينسب تعافيك إلى الحمامات الدافئة والنظام الغذائي المبتكر الذي قمت به. على أي حال، كما تعلم أنا لست مقتنعة تمامًا بذلك لكني على استعداد لتقبيل هذا الشخص الأناني المحبوب الساذج المهتم فقط بذاته من أجل رسالته بشأن صحتك.

لكنه ليس سعيدًا على الإطلاق، رأيت ذلك في الطريقة التي هز بها رأسه وزمَّ شفتيه وقد تنفس من أنفه بصوت عالٍ وبجدية شديدة عندما نقر على صدري، وفي النهاية نصحني بالانتقال إلى الجنوب، إلى منتون أو حتّى إلى القاهرة. نصحني بحذر أخرق ومزاح ومع ذلك ظل يخفي قلقًا يومض في عينيه. من الواضح أنه خشي من الأثر السيئ الذي سيحدثه موتي بين مرضاه، وهو يريد أن ينقذهم مقدمًا من هذا الأمر الكريه. من المؤسف لي أن أتسبب لا إراديًا في ضرر لسمعة مؤسسته الطيبة، لكنني مع ذلك أرى أني أمتلك الحق في أن أسمح لنفسي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بميتة مرفهة في هذا المكان بالذات الغامر بالسحر المؤثر للربيع المبكر. علاوة على ذلك، فإن هذا سيحدث في وقت أقرب بكثير مما يفترضه، ربما حتى قبل أن تسقط البتلات البيضاء الأخيرة من شجرة التفاح. سأخبرك سرًا وهو أنني لم أعد أذهب إلى أي مكان أبعد من الشرفة، وحتى هذا صعب للغاية عليّ، على الرغم من أنني لا أزال أمتلك الشجاعة للرد بابتسامة غير مبالية على نظرات الطبيب المتشككة المنزعجة. لكن لا تظن أنني أشكو إليك على أمل أنني أثير التعاطف. أنا فقط أريد أن أستخدم حق المحتضر في أن يتحدث عما يصمت عنه الأصحاء خجلًا. بالإضافة إلى ذلك فإنني أود أن أخبرك أن الموت لا يخيفني على الإطلاق، وأنني يا صديقي مدينة لك بهذا الهدوء الفلسفي. أنا الآن أفهم كلماتك تمامًا:

«إن الموت هو أبسط ظواهر الحياة العادية والطبيعية، فالإنسان يولد إلى الحياة ويعيش نتيجة لبعض المصادفات، لكنه فقط يموت وفقًا لقانون حتمي.» إن هذا القول المأثور أصبح واضحًا تمامًا الآن لي. نعم علّمتني الكثير ومن دونك ما كنت أدركت أبدًا تلك الملذات الخفية البطيئة التي يمكن أن تمنحها قراءة الكتب والفكر العميق والأنيق للعقل المبدع والموسيقى الملهمة وجمال غروب الشمس ورائحة الزهور والأهم من ذلك التواصل الروحي بين قلبين متشابهين حيث تصل درجة الحساسية بينهما إلى درجة التمجيد بسبب مرض خطير، والتفاهم المتبادل بينهما يأخذ طابع الاستشراف الصامت. ألا تتذكر نزهاتنا الطويلة غير المتعجلة على طول ساحل البحر تحت أشعة الشمس الصافية في تلك الساعات البطيئة المليئة بالحيوية من منتصف النهار، عندما يبدو أن كل شيء يتجمد في وهن عاجز حيث تركض الأمواج مع الحفيف الهادئ والهسهسة إلى الرمال الساخنة الصفراء وتعود مرة أخرى للبحر المتلألئ تاركة وراءها حدودًا رطبة متعرجة تختفي بأسرع ما يمكن مثل أثر النَفَس على الزجاج. هل تتذكر أننا كنا في الخفاء بعيدًا عن الطبيب الذي لم يسمح لأحد بالبقاء في الهواء الطلق بعد غروب الشمس، نلتقي في الليالي القمرية الدافئة في الشرفة؟ كان ضوء القمر يخترق التعريشات الكثيفة للعنب البري ويسقط على الأرض وعلى الجدار الأبيض مثل الدانتيل الخفيف الفاخر.

في الظلام لم نرَ بل نخمن مكان أحدنا الآخر، والهمسات الخائفة التي لا بد أن نتحدث بها من أجل الحذر حملت معاني مضطربة وديّة عميقة بكلمات بسيطة. أتتذكر كيف أنه في الأيام الممطرة عندما ظلّ البحر مُغطًى بالضباب لأيام كاملة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتنتشر رائحة الرمال الرطبة والأسماك والأوراق الطازجة فنصعد إلى غرفتي المريحة ونقرأ شكسبير، نقرأ قليلًا مثل الذواقين الحقيقين مستمتعين بعناية بكل صفحة، بكل شرارة لهذا العقل العظيم الذي أصبح لدي أكثر عمقًا وأكثر تأثيرًا بفضل تعليقاتك الدقيقة. هذه الكتب ذات الأغلفة الناعمة من جلد الماعز الأخضر ذي الجودة العالية معي الآن وفي بعض صفحاتها لا تزال هناك بعض «العلامات الحادة من أظافرك.» فعندما أرى من جديد هذه الرموز الباقية التي تذكرني بإعجابك الشديد بجمال عبقرية شكسبير التي ليس لها حدود، تتملكني عاطفة هادئة حزينة.

أتتذكر أنني على استعداد لتكرار هذا السؤال إلى ما لا نهاية، لكنني أشعر أنني يتملكني التعب، وبالمناسبة لا أزال أرغب في أن أخبرك بالكثير. يمكنك بالطبع أن تتخيل أنني في المصحة محكوم عليّ بالصمت الأبدي. فقط هذه العبارات النمطية المعتادة التي تصدر مني والتي ظلّ يتبادلها مرضانا عندما يجتمعون من دون قصد في الإفطار أو الغداء أو لشرب الشاي. كلهم يقولون الشيء نفسه. أخذ اليوم أحدهم حمامًا في درجة حرارة أقل بدرجتين عن أمس، وآخر أكل رطلًا من العنب، وثالث تسلق من دون توقف منحدرًا شديدًا يتجه إلى البحر، تخيل إنه حتى لم يلهث!

يتحدثون عن أمراضهم لفترة طويلة بمتعة شديدة وأحيانًا بتفاصيل مثيرة للاشمئزاز. كل شخص يريد أن يؤكد للباقين بشكل حتمي أن هذه الصعوبات غير العادية وتلك المعاناة القاسية لا يمكن أن يعانيها أحد مثله. وتكمن المشكلة عندما يتصادم اثنان من المتنافسين حتى ولو بشأن ألم بسيط في الرأس، يهزون أكتافهم بازدراء وتظهر ابتسامات ساخرة ملتوية على شفاههم وإيماءات متعجرفة ونظرات باردة جليدية. *ماذا يمكنك أن تخبرني عن الصداع النصفي لديك. ها ها!* هذا حقًا سخيف! أتخيل ماذا يمكن أن تقول لو أنّك تعاني تلك الآلام الشديدة مثل تلك التي أعانيها كل يوم. المرض هنا أصبح مسألة فخر ومنافسة، كنوع من براءة الاختراع للتقدير السخيف للذات، شيء مثل الوسام الفخري. لنفترض أنني لاحظت تلك الظاهرة لدى الأصحاء، لكن هنا، بين المرضى... يصبح الأمر مفزعًا ومقززًا ولا يحتمل.

لذلك أنا أبتهج هنا عندما أبقى وحدي في زاويتي المريحة التي يتعذر الوصول

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إليها، ومع ذلك لا، لست وحدي، أنا وحبي معي دائمًا، ها أنا قلت هذه الكلمة، ولم تحرق شفتاي كما يحدث في الروايات. ومع ذلك أنا نفسي لا أعرف هل يمكن اعتبار هذا الحب هادئًا، شاحبًا، شبه صوفيّ؟

لن أخفي عنك، إن الفتيات في ناحيتنا يعرفن عن الحب معلومات أكثر دقة وواقعية عما يعرفه آباؤهن، يغضضن البصر عن العلاقات العصرية، يتحدثن كثيرًا في المعهد عن هذا الموضوع، زيادة على ذلك فإن الفضول يكسبه بعض الخصائص الغامضة والمبالغ فيها وأحيانًا القبيحة.

نحن نتعلم من قصص الصديقات المتزوجات ورواياتهن القبلات المجنونة، والأحضان الساخنة، وليالي النعيم والرب يعلم ماذا أيضًا. كل هذا ندركه بالغريزة، وشبه الإدراك، وربما ارتبط بالمزاج والفساد والتخمين بشكل أو بآخر.

وهنا يكمن حبي؛ ليس حُبًا، لكنه خيال عاطفي مضحك. أنا مريضة واهنة وضعيفة، لطالما شعرتُ بالرعب منذ الطفولة تجاه كلّ هذه المشاهدات، حيث تُظهِر بشكل أو بآخر القدرة البدنية والصحة المفرطة والنهم للحياة. إن ركوب الخيل السريع، وشكل العامل الذي يحمل على ظهره حملًا ثقيلًا والحشد الكبير والصياح العالي والشهية المفرطة والروائح النفاذة، كل هذا يصيبني بالرجفة ويثير بداخلي الاشمئزاز. إنني أواجه المشاعر نفسها عندما يتوقف تفكيري من دون قصد عند الحب الحقيقي الشاعري للأصحاء بتفاصيله الثقيلة السخيفة الخالية من الحياء.

لكن لو أردنا تسمية الحب، فهو اندماج روحي شاعري بشكل استثنائي بين شخصين، حيث تنتقل مشاعر أحدهما وأفكاره عن طريق بعض التيارات الغامضة إلى الآخر، عندما تفسح الكلمات المجال للنظرات الصامتة وعندما تفصح رعشة ملحوظة في الجفون أو ظل ابتسامة خافت عن الكثير أكثر مما يفعله اعتراف طويل بالحب لدى الأشخاص أصحاب شعار «عَبِّز بطريقتك.» بعد أن تلتقي أعينهما سريعًا على طاولة مشتركة أو في غرفة الضيوف، وعند دخول شخص جديد أو بعد أن يصدر هراء قاله أحدهم، يمكن للشخصين أن يتقاسما انطباعًا مشتركًا من دون كلام. باختصار، إذا أمكن تسمية هذا النوع من العلاقات حُبًا، فسأقول بجرأة أنا لستُ وحدي، بل كلانا أحب أحدنا الآخر.

وحتى... حتى ليس ذلك الحب الذي يُسمى بشكل مضحك حُبًا أخويًا. أعرف هذا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جيدًا لأنَّ لدي ذكريات حية عن هذه الحالة، حالة وحيدة أخشى أن أحمرَّ خجلًا عندما أتحدث عنها. حدث ذلك فوق جرف البحر عند تعريش العنب، التي تُسمى الآن بشاعرية لطيفة وسُمّيت من قبل (تعريش الحب).

كان صباحًا هادئًا جدًا، وبدا البحر أخضر بلون شاحب برّاق وأحيانًا على سطحه الهادئ تتسلل ببطء بقعة أرجوانية غير متساوية بفعل السحاب. في الليلة السابقة لم أنم جيدًا وبالتالي نهضت مدمرة، يتملكني ألم بالرأس وأعصاب متوترة للغاية.

في أثناء تناول الشاي تشاجرت مع الطبيب ليس بسبب منعي من السباحة في البحر، لكن بسبب هيئته ومظهره الصحي، اشتكيت إليه في التعريش وانفجرت في البكاء. ألا تتذكر ذلك الموقف؟ لقد شعرتَ بالحيرة، وقلت لي بعض الكلمات غير المترابطة، لكنها حنونٌ ورقيقة، ومسدت شعري بلطف كالأطفال. هذا الفعل هزني تمامًا. ضغطتُ رأسي على كتفك وأنت... أنت قبلتني عدة مرات على التوالي في وجنتي وفي خدي. ويجب أن أعترف (وأعلم أنني سأحمر خجلًا في ذلك الجزء من الرسالة!) أن هذه القبلات لم تُثز استيائي، بل أعطتني متعة جسدية خالصة، على غرار الإحساس بـموجة خفيفة ودافئة مرت عبر جسدي من الرأس إلى أخمص القدمين.

لكن هذا الموقف هو الموقف الوحيد. أنت نفسك قلت لي يا صديقي عدة مرات إن العفة للأشخاص الذين مثلي ومثلك، المنهكين من السل، ليست فضيلة وإنما واجب.

ومع ذلك، فإن هذا الحب المتلألئ في غروبي الحزين كان ساطعًا، ورقيقًا، ورائعًا ومؤلمًا. أتذكر عندما كنت فتاة صغيرة في المعهد، مكثت في المستوصف في حجرة كبيرة فارغة مرتفعة بشكل رهيب، ومكثت لسبب ما منفصلة عن المرضى الآخرين، وشعرتُ بملل لا يحتمل. وذات مرة لفت انتباهي شيء بسيط ومدهش، خارج النافذة نمت زهرة من طحلب مغطى بنتوءات من قبل عهد يكاترينا. تلك هي زهرة المستشفى التي كانت عبارة عن تاج على شكل نجمة صغيرة صفراء ذات ساق طويلة رفيعة هشة خضراء مائلة للبياض، بصعوبةٍ أغمضت عينيّ وشعرت بنوع من الشفقة والحب العميق.

عزيزي، حبيبي! هذه الزهرة المريضة الضعيفة هي حبي لك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذا كل ما أردت أن أقوله. وداعًا! أعلم أن رسالتي ستؤثر فيك قليلًا وهذا سيسعدني مقدمًا. قد لا يحبك أو أحبك أحد مثل هذا الحب.

حقًا لدي رغبة واحدة. أن أراك في تلك الساعة الغامضة، عندما يبدأ حاجز يصعد أمام عيني، ليس من أجل التشبث بك في خوف لا معنى له ولكن من أجل أنه في لحظة السقوط وضعف الإرادة والخوف الفوري اللاإرادي لسبب ما ربما يسيطر عليّ، ستضغط على يدي بشدة وتقول لي بعينيك الجميلتين:

«تشجعي يا صديقتي... لا يزال هناك بضع ثوان، وستعرفين كل شيء!... لكني سأقاوم هذا الإغراء وسأختم رسالتي وسأكتب العنوان وسوف تتسلمها خلال عدة أيام.

شعوري الأخير هو العرفان العميق لك الذي أضاء أيامي الأخيرة بالحب. وداعًا! لا تفزع من أجلي. أنا على ما يرام... أغلقت عيني وسرت في جسدي من جديد موجة عذبة ودافئة مثل تلك التي كانت في تعريش العنب... أشعر بدوار هادئ وممتع. وداعًا!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ماشا المسكينة

ألكسندر إيزمايلوف

بروستاكوف الضابط المتقاعد كبير السن، متوسط الحال، متوسط الذكاء، ذو قلب طيب، يعيش مع زوجته العجوز التي تشبهه في الخصال نفسها في مدينة.... تقتصر ممارساتهما الرئيسة في الحياة على النوم والذهاب إلى الكنيسة في الأعياد واستخدام المشروبات المنزلية بمصاحبة جيرانهما وأصدقائهما. لديهما ابنة أخ تُدعى ماشا أصبحت يتيمة بعد وفاة والدها ووالدتها. أحبها العم وزوجته وهما لم ينجبا بعد كما لو أنها ابنتهما الحقيقية. ماشا هادئة مطيعة وجميلة وودود وقد أحبها الجميع. تبلغ من العمر سبعة عشر ربيعًا. كل أم تقول لابنها: «فليرزقك الرب بعروس مثل ماشا، يا لها من ربة منزل ممتازة.» فقد كَلَّفت زوجة العم ماشا برعاية المنزل وقامت ماشا بهذه المهمة بكثير من الرضا. وكل ابن يقول لنفسه: «فليرزقني الرب بعروس مثل ماشا، يا لها من فتاة جميلة!»

للفتاة ذات السبعة عشر ربيعًا أمنية أن تجد لنفسها شريكًا في الحياة، تتمنى أن تتزوج سريعًا. فلا تنوي ماشا الشابة الجميلة الماهرة في إدارة شئون البيت أن تترهبن في الدير. وأراد العم وزوجته أن يزوجاها بشخص طيب، مدركين أنها لن تعيش معهما إلى الأبد.

تقدم الكثيرون لخطبتها لكنَّ بعضًا لم يعجبها وبعضًا آخر لم يعجب ذويها. وفي النهاية ظهر ذلك العريس الذي يعرف الفن، وأعجب به الشباب والعجائز.

كان ميلوف (أو كما يمكن أن يطلق عليه) يبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا، ممشوق القوام، وحاذقًا، ونشيطًا، ولبقًا وأنيقًا. لم يَعِش في تلك المدينة، لكنه جاء إليها لقضاء حاجة ما. وفكر في أن يرى ماشا بعد أن سمع عن مزاياها وكذلك عن شوارها (الذي لم يكن في الحقيقة كبيرًا جدًا غير أنه ليس صغيرًا).

عثر على عجوز ذات وجه ورع تمارس مهنة الخاطبة منذ حوالي عشرين عامًا وطلب منها أن تزكيه لدى أقارب ماشا، وجلب لها بعض الأقداح ووعدها أن يعطيها عدة روبلات على هذه المهمة. وأقبلت على العمل.

توجهت الخاطبة النشيطة مباشرة من عند ميلوف إلى بروستاكوف. دخلت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحجرة وبعد أن أتمت الصلاة، انحنت بشدة لتحية صاحب البيت وصاحبته.

- جئت إليكما في حاجة.

تقول لهما الخاطبة.

- ما هي يا عزيزتي؟ ما هي؟ يسألها بروستاكوف.

- لديكما بضاعة، ولدي التاجر.

- تفضلي اجلسي، تفضلي اجلسي، أحضري لنا يا زوجتي الشراب.

- سأخطب يا سيدي ابنة أخيك لشاب هادئ، مستقيم، مثل الفتاة الخجول لا يقرب المسكرات.

- حسنًا، أيتها العجوز، حسنًا، ماذا تعرفين عنه بالكامل؟

قالت بروستاكوفا للخاطبة وهي تقدم لها كأسًا من الخمر القوي.

- أما أنا، فامرأة عجوز، ولو استفضت في الحديث، فسأكذب عليكما... اسمحا له برؤيتها، لو طلبتما منه زيارتكم.

- فليتفضل، فليتفضل، نحن سعداء بالضيف العزيز.

في اليوم التالي يذهب ميلوف، مرتديًا أفضل ما عنده وبصحبته الخاطبة ليرى العروس، ويريها نفسه. ويستقبله بروستاكوف بلطف ويجلسه بالقرب منه.

- هيا أيتها العجوز فلتقدمي النبيذ للضيف العزيز قال بروستاكوف لزوجته.

- شكرًا جزيلًا، أنا لا أشرب.

قال العريس الزاهد.

- إذن ماذا تريد أن تشرب ما دمت لا تشرب النبيذ؟

- لا داعي للإزعاج، أنا لن أشرب شيئًا.

- ماشا!

تقول بروستاكوفا لابنة الأخ (التي كانت حينذاك تنظر إلى ميلوف من حجرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخرى من خلال فتحة الباب)

- ماشا! ادخلي إلى هنا.

تدخل ماشا إلى الحجرة، مرتدية ثوبًا احتفاليًا، غضت عينيها، وانحنت بوجل إلى ميلوف الذي يقترب منها بشكل جريء ولكن باحترام ويأخذ يدها البيضاء ويقبلها. احمر وجه ماشا التي لم يقبل أحد يدها حتى ذلك الوقت خجلًا، وابتسمت زوجة العم.

- قدمي إلى الضَّيف الشربات. قالت لها

تتقدم ماشا، وتهتز الكأس معها على الصينية، ويشرب ميلوف من دون اعتراض شاكرًا ماشا على ذلك العمل. أجلسوا العروس بالقرب من العريس وأخذ وجهها يتحول إلى الحمرة والصفرة بالتناوب طوال الوقت الذي مكث فيه ميلوف لديهم.

نال ميلوف من أول مرة إعجاب كل من العم وزوجته وابنة أخيه، وبمجرد أن رحل، قال بروستاكوف لزوجته:

- يا له من شاب ممتاز، أيتها العجوز؟!

- إنه بالفعل كذلك -أجابت زوجته التي يبدو أن لها ذوقًا ما في الرجال- ما رأيك فيه يا ماشا؟

التزمت ماشا الخجول الصمت، وأخفضت بصرها إلى الأرض.

- انظري، كم هو وسيم، أبيض اللون، أحمر الوجنتين، كيف تبدو ملابسه! إن الخاطبة قالت لي إنه أستاذ في العزف على الهوسلي.

- وعلى الكمان يا عمتي.

تمتمت ماشا.

- هل تتزوجين هذا العريس؟

سألت زوجة العم.

- ليس لدي اعتراض.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أجابت ماشا بصوت هامس.

سارت الأمور على ما يرام. وسأل بروستاكوف الفطن لدى المعارف عن سلوك ميلوف الذي رأوه عدة مرات في الطريق أو في الكنيسة. لم يسمع عنه شيئًا سيئًا، فعقد معه الشروط بخصوص المهر وأمر زوجته بإعداد المشروبات للزفاف. طلب ميلوف بقوة من حَمويْن المستقبل سرعة عقد الخطبة. ونفذا طلبه. ورأى أنه لا داعي من الحديث عن أن الفتيات في ذلك اليوم الاحتفالي ينشدن أغاني الزفاف ويشارك أصحاب البيت الضيوف بإفراغ الكؤوس التي تحملها الخاطبة، وبَقِيَ العريس مع العروس يحليان المشروبات بقبلاتهما.

من المعروف للجميع بعد ذلك اليوم الذي تلصق العروس الخجول لأول مرة فيه شفتيها بشفتي من تبادلت معه خاتم الزواج، أنَّه يمتلك الحق في أن يذهب إليها ويطلب قبلاتها. وأنتم يا من حصلتم على ما ترغبه الصبايا، تتذكرن بالطبع كيف يأتي العريس إليكن بعد الخطبة، وكيف يحضر لكن الهدايا، وكيف تقدمن مقابل ذلك القبلات العذبة، كيف قَبَّلكن على انفراد وفي حضور الصديقات اللوائي كن يحسدكن على نصيبكن. وبالطبع من السهل أن تتخيلن سلوك ماشا وميلوف قبل وهذه اللحظة وبعدها وقد خرجوا فيها من الكنيسة بعد إتمام الزواج والقبلات المتبادلة مع ضحكات الفتيات الخجالى، وقهقهة العزاب الحمقى وصياح الصبية.

خصص بروستاكوف في منزله حجرة خاصة للعروسين، لأن ميلوف كما قلت مسبقًا شخص جوال وعلاوة على ذلك لم يبغِ العم وزوجته لهذا السبب فراق ابنة الأخ. أحبت ماشا زوجها للغاية، معتقدة أنه يحبها كثيرًا لأنه ظلَّ يقبلها كثيرًا ولم يتشاجر معها قط على الرغم أنه لدى الأزواج في مدينتهم عادة وهي أن يسبوا زوجاتهم مرتين أو ثلاثة في الأسبوع من أجل أن يحترمنهن.

وبعد مرور عدة أشهر من الزفاف استعد ميلوف للرحيل إلى ... حيث مكث فيها من قبل كما قال. كما قال إنه سيسافر إلى هناك من أجل تنظيم بعض الأعمال، بالإضافة إلى أن بعض أصحاب العمل يطلبونه لأداء وظيفة ما في.... أرادت ماشا التي اعتادت وجود زوجها أن تسافر معه وقد استنزف ميلوف كل الكلام الحلو بمساعدة بروستاكوف وبروستاكوفا لصرف زوجته عن نيتها حيث أقنعها أنه سيعود سريعًا وأنها لن تتحمل مشاق الطريق بسبب حملها. ولم ينسَ أن يعطيها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الوعد المعتاد للمسافرين بدوام كتابة الخطابات.

قبيل فراقهما طلب ميلوف من ماشا النقود والجواهر التي أسلمتها في المهر. وفي اليوم التالي عندما حانت ساعة الوداع، تعانقا الزوجان الشابان بشدة، وانهالت قبلات لا حصر لها على الأيدي والوجهين لدى كليهما، وانسابت الدموع أنهارًا. استطاع ميلوف بجهد جهيد أن يصل إلى العربة، وجلس بداخلها وقتًا طويلًا، وفي النهاية بعد أن تنهد بثقل، جلس وأمر الحوذي بأن يسير بهدوء، واستدار إلى الوراء ونظر إلى ماشا التي وقفت عند البوابة تبكي. وتكاد تفقد أثره حتى وقعت مغشيًا عليها.

أصيبت بالمرض بسبب الحزن، لكن طبيعتها القوية، ومواساة أقاربها والوقت والأمل عالجوها من المرض. تُرى ماذا كانت تفعل من أجل الشفاء؟ تبكي وتتحدث مع العم وزوجة العم عن زوجها. أصبح قراءة الطالع عن طريق ورق اللعب هو ممارستها الرئيسة. لو بقي ملك مملكة القلوب الحمراء بالقرب من ملوك المملكة الآخرين، كم من السعادة التي تظهر حينذاك في عينيها! فتأخذ البطاقة وتقبلها وتضمها إلى قلبها. أما إذا أحاطت بطاقات البستوني السوداء التي تنذر بسوء الحظ ببطاقتها المفضلة، فكم من الحزن في ذلك الوقت ينتاب ماشا التي تعتقد في الخرافات! يبدو لها أن حبيبها ميلوف إما قد تعرض للخطر وإما مريض وإما ليس على قيد الحياة.

بعد عدة أشهر من سفر زوجها أنجبت ماشا طفلًا جميلاً. مَنْ يستطيع أن يصور مشاعر الأم عند ولادة أول طفل لها! ميلوف الصغير صورة حية من الكبير. هل من الممكن تخمين أن ماشا قد تمل من العناية بابنها وإرضاعه من لبنها. أطلقوا عليه عند التعميد اسم أبيه. وغياب الأب وصمته هما فقط ما عكرا فرحة ماشا. بعثت إليه في كل بريد الكثير من الخطابات، ولم تتلق منه ردًا ولو سطرًا واحدًا ولم تعرف كيف تفكر بشأنه، كانت تبكي وتتضرع للرب.

كتب بروستاكوف لمعارفه الذين يعيشون في .....وطلب منهم أن يخبروه هل جاء صهره إلى هناك وهل هو معافى. ولكنه تلقى ردًا أنه لم يأتِ إلى هذه المدينة ولم يعش فيها قط. وبفطنته أو بنصيحة زوجته قرر ألا يخبر ماشا عن الأمر لبعض الوقت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في يوم من الأيام بينما لا يعرف كيف ينبغي التفكير بشأن ميلوف تلقى خطابًا من أحد معارفه الذي دعاه في حفل زفاف ابنة أخيه ووصل مؤخرًا إلى إحدى المدن لقضاء حوائجه، ونص الخطاب على النحو التالي:

«سيدي بانتيليمون تريفونافيتش والسيدة سالامانيدا تاراسيفنا، أتمنى لكما صحة جيدة لسنوات عديدة.

أهنئكما من كل قلبي بحلول الصوم الكبير وأتمنى أن تقضياه بسلام وصحة، وأخبركما بالمناسبة أولًا، أني وصلت إلى هنا وأنا حيٌ أرزق ومعافى، ثانيًا، «إني وجدت هنا صهرك، أعني زوج ابنة أخيك، السيد ميلوف. اسمح لي أن أخبرك يا سيدي، أنه ليس هنا للعمل، بل متزوج منذ ثلاث سنوات بزوجة أخرى، ليست روسية، وإنما ألمانية، ويعيش هنا معها ويأكل المحرمات في الصيام. أنصحك بصفتك صديقًا قديمًا أن تطلب من ابنة أخيك ألا تحزن على شيء، وأن تقيم ضده دعوى في الوقت المناسب. سأظل دائمًا خادمك المخلص.

فيليمون فاتيويف

يصنعون هنا بيرة أصلية ولكن بطريقة حمقاء يضعون قليلًا من المادة المُسكرة، كما أنه ليس من السهل أن تجد النبيذ السليم والفودكا الجيدة.»

بعد أن قرأ الخطاب، لاعنًا صهره عديم الضمير، قرر بروستاكوف أن يتبع نصيحة صديقه الذكي. استدعى ماشا، وأخرج من جيبه الخطاب الكارثي ولبس النظارة، وقرأه أمامها بصوت عالٍ.

حال لونها إلى اللون الأبيض مثل القطن، أخذت تنتحب، وكادت أن تسقط ابنها من يديها. انتزعته زوجة العم منها. انخرط في البكاء. سمعت ماشا، ولم تتفوه بأي كلمة، أخذته ووضعته على ركبتيها. التزمت الصمت العميق، وأخذت تحدق إلى المنظر وهي تشبك يديها. وفي النهاية أخذت الدموع تترقرق على أهدابها السوداء، وتساقطت كالأنهار على ميلوف الصغير.

- ماذا ستفعلين الآن يا ماشينكا؟

قال بروستاكوف، وهو نادمٌ على عدم توخيه الحذر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ماذا أفعل يا عمي؟ سأذهب إليه بابنه.

- ألم تسمعي، إنه يعيش مع زوجة أخرى، ليست من مِلتنا؟

- سمعت يا عمي، سمعت كل شيء.

- سيطلقونك منه لو أقمت ضده دعوى... ماذا ستفعلين عنده؟

- أقيم دعوى ضد زوجي؟ ماذا سأفعل عنده؟ سأفعل كل شيء، سأسعى إلى إرضائه... أما غريمتي الشريرة

أخذت تتمتم وهي تنتحب.

- ألمانية! ومن ملة أخرى! -صاحت زوجة العم- هل يوجد لديكِ عقل يا ماشينكا؟

قال العم الحكيم لها، وهو يحك رأسه ولا يعرف كيف يثني ابنة أخيه عن عزمها:

- سيعذبونك يا ماشينكا في أيام الصيام من الجوع. أنت بالفعل لا تبغين اللحم، مثل الأخريات في أيام الأربعاء والجمعة... الملعون! لم يشرب الخمر عندنا طوال اليوم، والآن يشرب مع زوجته الشاي والقهوة بالقشدة في أيام الصيام.

لم تستطع حجج بروستاكوف وبروستاكوفا القوية أن تقنع ماشا، فاضطرا أن يتركاها تذهب بابنها إلى ميلوف الخائن.

بعد أن وصلت بسلام إلى تلك المدينة التي يعيش فيها زوجها، سألت عن شقته آخذة ابنها معها. ذهبت مباشرة إلى المنزل. دخلت الردهة، وسمعت في حجرة مجاورة صوت ميلوف. ظلَّ قلبها يخفق. خافت أن تدخل هناك. الأبواب غير مغلقة بإحكام. اقتربت على أطراف أصابعها ونظرت خلالها خلسة، ماذا رأت! الخائن يجلس على المقعد، وغريمتها تجلس على ركبتيه شبه عارية. تقبله بلطف وهي تعانقه بإحدى يديها، وتضع رأسها بدلال على كتفه. وهو يمسك يدها الأخرى ويضمها إلى شفتيه وصدره، ويقول لها: كم أحبك يا حبيبتي شارلوتا. لم تتحمل ماشا أن تنظر إلى هذا المنظر طويلًا. وفجأة دخلت إليهما. وانثنت قدماها. سألتها شارلوتا بلطف وهي تسوي صدريتها وترى أمامها امرأة شابة جميلة ترتدي ملابس بسيطة وترتعش من الخوف:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- تريدين من، يا عزيزتي؟

- زوجي، أيتها السيدة، أريد زوجي.

- أي زوج.

تسأل شارلوتا المندهشة.

يرتمي ميلوف عند أقدام زوجتيه وقد صار شاحبًا كالمجرم الذي يعذبه الضمير والخوف الذي يعد لإعدامه. ويعترف لهما بكل شيء. وطلب الصفح. ويختم الأمر بأنه لن يستطيع العيش من دونهما. تبكي ماشا وتنتحب. وتحاول شارلوتا لكن لم تستطع أن تخفي دموعها، وتلقي نظرة رهيبة على الخائن وتخرج بسرعة من الحجرة. يريد ميلوف أن يمسكها من فستانها، ولكن في ذلك الوقت بكى ابنه الذي لم يره حتى الآن. فينهض ويأخذه على يده ويغطي وجهه بالدموع الساخنة والقبلات ثم يعيده مرة أخرى إلى ماشا بعدما أخذه منها متنهدًا. ويذهب ليبحث عن شارلوتا.

نجح ذلك التعس بصعوبة أن يفتح الباب في تلك الحجرة التي خرجت إليها، حتى أطلق صرخة فظيعة. تجري ماشا إليه، وترى غريمتها ممددة على الأرض وغارقة في الدماء، وقد غُرِسَ سكين كبير في صدرها العاري الذي كانت تداعبه يد ميلوف منذ وقت قصير، تندفع فقاعات الدم من جرح عميق ويسيل الدم كالنهر على الأرض من فستانها مباشرة إلى قدمي زوجها. تضع ماشا مرهفة الحس ابنها على المقعد، وتقترب من تلك التي تحتضر لتقديم المساعدة. تحاول ماشا أن توقف تدفق الدم، تخلع من رقبتها وشاحًا وتربط الجرح الذي يتساقط عليه دموعها من الحسرة. ألقت شارلوتا عليها نظرة مؤثرة، ثم وجهت عينيها الزائغتين إلى زوجها، الذي يقف بالقرب منها مستندًا إلى ركبتيه ويمسك يدها، وتقول له بصوت واهن:

- ألم يكفك حبي وحده، لكي تقسم قلبك الذي أقسم لي أنه سيكون ملكي فقط؟ ما الذي سببته لك لهذه الخيانة الفظيعة؟ فلتتذكر ولو سلوكًا واحدًا لي ولو كلمة واحدة مني أحزنتك. بعد أن نسيت الإخلاص، بعد أن نسيت الشرف من أجل غرض حقير تسببت في هلاك واحدة... وللثانية... وداعًا... فلتعش سعيدًا مع زوجتك الثانية... ولتتذكرني في وقت من الأوقات. أضافت قائلةً وهي تطلق تنهيدة ثقيلة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان هذا هو النفس الأخير. يسقط ميلوف اليائس برأسه دون وعي على حافة صندوق حديدي، ويسيل الدم من مقدمة رأسه ويختلط بدماء شارلوتا، وماشا المسكينة لا تعرف ماذا تفعل. وفجأة ينفتح الباب، ويدخل الطبيب الذي استدعته الخادمة التي رأت بداية هذا المشهد الفظيع. يأخذ الطبيب يد الميتة المتصلبة ويتحقق من النبض المتوقف. يسمع ويرى أنها ميتة. وبإشارة الأطباء يقول بحزم إنه من المستحيل مساعدتها. ثم يفحص ذلك الراقد المغشي عليه، ويخرج من جيبه كولونيا ويعيد له الوعي برائحة السبرتو القوية. ينهض ميلوف صامتًا، متجهمًا وينظر للحظة إلى شارلوتا الميتة ويتفحص كل ما هو ملقى على الأرض، يمسك السكين المنغمس في دماء زوجته المتخثرة ويريد أن يغرسه في قلبه.

لم يستطع كل من الطبيب الخائف والخادمة السمينة وماشا المرتجفة أن يُجرِّدوا ميلوف من السلاح، وفي النهاية انتزعت الأخيرة السكين منه بعد أن قطعت أصابعها. يندفع الطبيب إلى النافذة ويفتحها ويستدعي بصوت عالٍ كل المارة السائرين بالقرب للمساعدة. وفي لحظة واحدة تمتلئ الحجرة بحشد كبير من جميع أنواع الناس، وبأمر الطبيب الذي استدعاهم يُقيدون يدي ميلوف الثائر إلى الوراء ويحملونه إلى الفراش في حجرة أخرى. ويقع مرة ثانية في حالة إغماء. يريد الطبيب أن يطلق دماءه بعد أن ربط الجرح في رأسه.

في أثناء هذا عبأ ذلك المُهلك المحترف للجنس البشري الطبق الرابع من دماء ميلوف الفاقد للوعي، داحضًا اعتراضات ماشا الوجلة التي لا تعرف الطب. ويصل إلى ذلك البيت والد شارلوتا ووالدتها اللذان علما بالحادث المؤسف وجزء من الأسباب التي أدت إليه. يملأ كلاهما الغرفة كلها بالصراخ، ويأخذان معهما الجثمان الدامي لابنتهما الوحيدة، ويقسمان بتدمير المجرم.

أُصِيبَ ميلوف بحمى قوية. ولم يعرف أحد في ظل درجة الحرارة المرتفعة. اسم كل من ماشا وشارلوتا باستمرار على لسانه. إما يطلب منهما العفو على خداعه الخسيس، وإما يتوسل إليهما بالدموع أن تُحبا إحداهما الأخرى، وإما يرى شارلوتا تقبل ابن ماشا، وإما ماشا تعانق شارلوتا وتُلاطفها. لم يبتعد الطبيب أو ماشا عن فراش المريض ولو لساعة واحدة. أمّا هي فتسوي له الوسائد عند رأسه وتسخن له الدواء، والطبيب يكتب الوصفات الطبية ويسكب خليط الدواء عنوة في فم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المريض.

بعد أسبوعين تقريبًا سرت الحُمَّى والهذيان في جسد ميلوف. كان في غاية الضعف. يبكي قليلًا ويتحدث أيضًا، وينصت باهتمام إلى الحديث المستفيض للخادمة الثرثارة عن جنازة شارلوتا، ويتظاهر أنه هادئ ثم يأكل بعضًا من حساء الدجاج الذي تطهوه ماشا بناءً على أوامر الطبيب.

في اليوم التالي استيقظت ماشا مبكرًا في الخامسة صباحًا، واقتربت من فراش زوجها ونظرت إذا كان نائمًا أم لا، ورسمت علامة الصليب عليه، وارتدت ملابسها. وبعد أن استعدت تمامًا للخروج أمرت مَنْ في المنزل بعدم إيقاظ ميلوف، وذهبت مع ابنها إلى الكنيسة. أخذت هناك تصلي بالدموع، واستمعت إلى قداس الصباح الباكر، وعمَّدت ابنها وأخرجت بعض القربان ثم أدت صلاة الشكر.

أمرت ماشا بعد عودتها إلى المنزل بفتح الستائر في الحجرة التي يرقد فيها المريض، معتقدة أنه سيستيقظ سريعًا، ثم دخلت إلى الحجرة بعد أن تخلع الحذاء على العتبة، وتسحب الستائر عند الفراش وترفع بالتدريج البطانية. في هذه اللحظة يفتحون نافذة واحدة ويُظْهِرُ ضوءُ النهار الذي نفذ من خلالها لماشا جثمان ميلوف الغارق في الدماء. الملاءة، الوسائد، البطانية، الأرض، كل شيء ملطخ بالدماء. تهوي المسكينة إلى جسد زوجها وهي تطلق صرخة وحشية، وتظل بلا حراك لعدة ساعات.

قطع البائس في غيابها شرايين يده وقدميه بالسكين الذي نساه الطبيب على المنضدة، وبهذا الشكل سالت كل دمائه. ووجدوا على أحد الأرفف لديه رسالة كتبها لزوجته قبل نهايته.

تتألف من هذه السطور:

«إني قررت بل وأستحق الموت. حبيبتي ماشا، لا تبكي عليّ، فالشرير لا يستحق دموعك.

لقد أحببتك، وأقسم لك بالله الذي سيعاقبني في ذلك في آخر ساعة من حياتي... ولكني أحببت قبلك شارلوتا... أنتِ لا تعرفينها ولكنها تشبهك في كل شيء... دمرتكما أنتما الاثنتين! أيها الرب العادل! فلتنتقم من الشرير على أعماله.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ماشا، حبيبتي ماشا! وافقي أن تعيشي من أجل ابننا التعس. أتوسل إليكِ في نهايتي الحزينة تلك.

يمكن لكل قارئ مرهف الحس أن يتخيل كيف تمزقت أرملة ميلوف التعسة. أطلقت على نفسها قاتلة زوجها وغريمتها وأخذت تلعن تلك الساعة التي أتت فيها إلى هذه المدينة وندمت على القدر الذي منحها ابنًا. وقد منعها واجبها المقدس بصفتها أمًا ومسيحية أن تنهي حياتها.

لا شيء يقدر أن يمنع ماشا من أن تصبح شاهدة على جنازة زوجها المخزية، فقد دفنوا المنتحر في أرض واسعة خارج المدينة، وهناك حفروا القبر الذي دفنت فيه شارلوتا، ودفنوا جثمانه مع جثمانها.

كل ما أخذته ماشا من أملاك ميلوف التي بقيت بعد موته هو شبحه فقط. عادت إلى بيت أهلها وبعد عدة أشهر ماتت من الحزن.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قصة ماريا المسكينة

ميخائيل ميلونوف

إلى أصحاب المشاعر الرقيقة والقلوب المرهفة، أرغب في أن أتحدث عن ماريا، وأقص عليكم قصة حياتها الحزينة. إلى الجميلات العزيزات، أهدي إليكن عملي هذا وسأصبح في غاية سعادتي لو لمست قلوبكن مأساة ماريا وسالت منها الدموع. أما أنتم يا أصحاب الأرواح الباردة والقلوب المتحجرة! لا تقرأوا روايتي هذه، فأنا لا أكتب من أجلكم!

في إحدى ضواحي موسكو ذات الأحجار البيضاء، وفي إحدى القرى الرائعة التي تقع على شاطئ نهر موسكو، عاشت ماريا، ابنة تاجر ثري، فتاة رقيقة فاتنة، نادرًا ما يوجد مثلها في الكون وإن كان مثلها تعيش في موسكو فقط. وبقلب نقي ووجه رائع وروح ملائكية انتظرت ماريا ذلك الشخص الذي يمكن أن تمنحه نفسها وقلبها. فهي لا تحتاج إلى المال وإنما فقط شخصًا يُحبها، ومن يقوى على ألّا يحب ماريا؟

فقدت ماريا أمها منذ ولادتها، ومنذ ذلك الوقت هناك شعور خفي بالتعاسة يسيطر عليها، ودائمًا ما حملت في قلبها شيئًا من الحزن بدا كما لو أنَّ حجرًا يرقد على قلبها وتجسد في جميع ملامح وجهها. وهل خُلِقَ هذا المخلوق الجميل للمعاناة ولكي يُفني حياته في نحيب وشجن؟ وفي نوبات حزنها سارت ماريا عبر البساتين والوديان وحيدة تحمل معها قلبها الحزين. لكن الأماكن الرائعة وشجرة البلوط المورقة وغدير النهر أدخلوا السعادة على قلبها. وفي عزلتها الهادئة تجلس حتى أعماق الليل. لم يشعر والدها بسحر الطبيعة مثلها بل دائمًا ما يوبخها. ماريا بريئة في مشاعرها ولم يتمكن توبيخ والدها من أن يؤثر فيها، أحيانًا تجلس في ليالي الربيع وهي غارقة في حزنها عند النافذة تنظر إلى السماء الزرقاء والقمر المضيء، والدموع المتلألئة تظهر فوق أهدابها السوداء وتبدو في ضوء القمر الخافت مثل الألماس الشفاف.

لماذا يسيطر الحزن على ماريا؟ إنه أمر يصعب تفسيره. لم تعرف ماريا الحب. أحبت جميع الرجال كأشقاء لها. لكن هل تقوى على الحزن؟ إن قلب الإنسان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يصعب فهمه، فهناك لحظات يشعر فيها القلب بالشجن والحزن من دون أي سبب، وربما تأتي تلك اللحظات عندما ينسى الإنسان كل شيء وينطوي على نفسه حتى تتحول تلك اللحظات إلى لحظات أكثر عذوبة في حياته كلها.

تقدم العديد من الرجال لخطبتها، لكنها لم تختر أحدًا، فقد ظلت تتمنى أن تربط مصيرها بذلك الشخص الذي شغل خيالها وتصورها، تتمنى زوجًا طيب القلب، رقيق المشاعر، يشبه طباعها، لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه. أما ماريا فوجدت ذلك الشخص الذي أحبته بشغف، لكن على ما يبدو أن القدر لم يبغِ لها السعادة.

ذات مرة بينما ماريا تسير في البستان، سمعت عند الشجرة التي أحبت أن تجلس تحتها وتستغرق في تفكيرها تلك الكلمة: *أحبك*! تنهدت ماريا وأخذت تفكر مثل الطفل البريء الذي بدت لغة الحب له جديدة وغامضة، وعلى لحاء الشجرة كتبت عدة كلمات ردًا على ما سمعته. وفي اليوم التالي دفعها شعور لا إرادي إلى البستان، دخلته وهرولت إلى شجرتها المحبوبة ورأت إكليلًا من الزهور فوق كلماتها. ارتعشت ماريا، وشعرت بالخوف، وأرادت أن تهرب، وفجأة ظهر أمامها شاب وسيم ارتمى عند قدميها وعيناه تملأهما الدموع ويقول: «ماريا!» «حبيبتي ماريا!» ومن يمكنه أن يتصور ما شعرت به ماريا في تلك اللحظة؟ إنه حبيبها ميلون أعز شخص لديها فارتمت في أحضانه. أقسم الحبيبان على الولاء إلى الأبد. وأكدا هذا القسم بقبلة متوهجة. ظلت ماريا كل يوم تأتي إلى البستان وتقضي مساءها إلى جوار قلب حبيبها. كم كانت تلك اللحظات سعيدة لهما! أما أنا فعرفت ماريا فيما بعد. كم كانت تتذكر تلك اللقاءات بنشوة في القلب، يا لها من مسكينة! وتنفجر في البكاء. لم تستطع ماريا أن تكشف لأبيها عن حبها لأنها تعرف طبعه القاسي. فميلون فلاح فقير وهذا سبب كافٍ ليفرقهما إلى الأبد. ومع ذلك أرادت ماريا أن تخبر والدها بحبها: لكن هل هذا القلب الطيب المرهف الحس قادرٌ على أن يخفي حبه عنه؟ منعها ميلون من أن تخبره، فهو يستشعر مصيرًا حزينًا. وظلَّ يقول لها: لا يزال أمامنا الوقت حبيبتي ماريا، فلنستمتع بتلك اللحظات الجميلة التي تمر والتي ربما لن تعود أبدًا. أطاعته ماريا وظلت تخفي حبها عن والدها لمدة عام كامل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في غضون ذلك الوقت تقدم أحد التجار طالبًا يدها. لكنها رفضت: وطلب والدها منها أن توافق. أخذت ماريا تشعر بالعذاب وتبكي وفي نهاية الأمر اضطرت أن تصارح والدها بحبها. وأخذت تقول: «أبي! إني أحب! إذا أردت سعادة ابنتك، فلتنظر إلى ميلون كأنَّه ابنك! قال الأب في دهشة: ميلون! أبدًا! أقسم لك أني سأقطع علاقتي به إذا أردت مصلحتي! لم يثنِ الرجاء أو الدموع أو اليأس الأب عن عناده. مسحت ماريا دموعها، وأخفت حزنها وحاولت أن تتظاهر بالمرح. وقدم لها الأب العريس.

- لن أتزوج أحدًا سوى ميلون.

قالت ماريا.

- لكن من الآن ستعيشين في أحضان إراست!

أجابها الأب القاسيَ.

أذهلت تلك الكلمات ماريا التي أرادت أن تسير وراء أبيها، لكن انثنت قدماها وسقطت مغشيًا عليها. وبعد أن استعادت وعيها وجدت نفسها في أحضان ميلون.

- أيها البائس! ما العمل؟

قالت ماريا.

- ماريا! -أجابها ميلون- إن الوقت مناسب، إنه ثمين لنا الآن! فلنستغله، ولنهرب.

- لا! -قالت ماريا- رُبما أبي سبب في تعاستي، لكني لن أخل بواجبي. لا يا ميلون، لا تحدثني عن الهروب، لا تهينني. إني آمل أن يستجيب أبي لي!

- لكن، ماريا، حبيبتي ماريا، فلتفكري في الأمر...

- الكلمات لا تجدي -قالت ماريا- فلنبتعد، إني أحبك، لكني لن أقوم بعمل شائن!

- كيف! -صاح ميلون- ألم تقفي أمام سعادتي؟ ألا تخجلين بعد أن قلتِ إنك تحبينني؟ أنتِ؟ يا إلهي!

- ميلون، عزيزي ميلون!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صاحت ماريا، لقد فات الأوان...

في اليوم التالي أمر الأب ماريا أن ترتدي ملابسها وتذهب إلى الكنيسة. أذعنت ماريا له وأسلمت نفسها إلى الرجل الذي لم تحبه أبدًا. وفي أثناء خروجها من الكنيسة رأت ميلون، شاحبًا يائسًا، وقد اقترب منها وأمسك يدها، ونظر إليها بتمعن وطعن قلبه بخنجر.

- توقف!

صاحت ماريا وارتمت فوق جسد ذلك التعس. وحاولوا عبثًا أن يصرفوها بعيدًا عن جسده، لكن كل الجهود باءت بالفشل.

- لا -قالت ماريا- أيها القساة! أنتم لن تمنعوني أن أحبه، اتركوني أمث عند قدميه!

استجمع ميلون المحتضر أنفاسه الأخيرة، وأمسك يديها وقال: ماريا! أحبك. والله شاهد على ذلك! وبتلك الكلمات أخرج الخنجر من صدره وأغلق عينيه إلى الأبد.

تركت ماريا في يأس وحزن أباها وزوجها ووطنها. وقضت باقي أيامها في كوخ فقير في حزن وأسى. يا لها من مسكينة! هناك، أنهت أيامها في أوج شبابها، وهي تنطق اسم ميلون، الاسم الذي أحبه قلبها.

يا لك من مسكينة! لم يزر أحد قبرك، لم يذرف أحد الدموع على رفاتك. تُوفيتِ في حزن، وفي وحدة، بعيدة عن الوطن، والأصدقاء... في بعض الأحيان تغطي الآثار الفاخرة جثث الأشرار، بينما تواري حفنة من التراب جسد امرأة فاضلة وعاشقة وشغوف وابنة رقيقة، ويصبح المكان الذي ترقد فيه منسيًا ومزدرءًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رواية قصيرة جدًا

فسيفولود جارشين

إنه الصقيع، إنه البرد، إنه يناير بالخارج الذي يعرفه كل فقير، كل عامل نظافة، كل شرطي، كل من لم يستطع أن يختبئ في مكان دافئ. ومن يعرفه أنا بالطبع، ليس لأني لم أجد لنفسي ركنًا دافئًا، ولكن وفقًا لخيالاتي الخاصة.

لماذا حقًا أتجول على طول الجسر الخالي من البشر؟ فها هو الفنار ذو الأربع أذرع يتوهج بجلاء، على الرغم من أن الريح تندفع نحو الفنار وتجعل شعلة الغاز تتمايل. لكن هذا الضوء الساطع يجعل القصر الفاخر وبخاصة نوافذه تبدو أكثر قتامة. وتنعكس على الأسطح الزجاجية اللامعة الضخمة العاصفة الثلجية والظلام. وتعوي الرياح وتئن فوق صحراء النيفا الجليدية. وينبعث من خلال الإعصار أصوات دق جرس ويُسمع رنين كاتدرائية القلعة. حيث تتوافق كل دقة من الجرس الحزين مع صوت قطعة الخشب لدي على ألواح الجرانيت الجليدية مع دقات قلبي المريض على جدران غرفته الضيقة.

يجب أن أقدم نفسي إلى القارئ. إنني شاب على ساق خشبية. ربما ستقول إني أقلد ديكنز. فلتتذكر سيلس بيج، الشخصية الأدبية ذات الساق الخشبية في رواية «صديقنا المشترك». لا، أنا لا أقلد، أنا حقًا شاب على ساق خشبية، وقد أصبحت كذلك مؤخرًا.

دق، دق، دق! تدق الأجراس في البداية وتنبض (العفو يا الله)، وبعد ذلك تدق ساعة ثم ساعة أخرى ثم سبع ساعات حتى الصباح وحينئذ يرحل الليل الأسود المليء بالصقيع ويحل محله يوم رمادي. هل سأعود إلى المنزل؟ لا أعلم، الأمر سيان لي. فلست بحاجة إلى النوم.

في الربيع أحببت أيضًا أن أسير على طول الجسر ليالي بأكملها؟ آه! يا لها من ليالٍ. ما أفضل منها؟ ليست ليلة الجنوب الخانقة بسمائها السوداء الغريبة ونجومها الكبيرة التي تلاحقنا بنظراتها، فكل شيء هنا مضيء ورقيق.

تبدو السماء متعددة الألوان باردة وجميلة، والفجر الذي يطل طوال الليل يلقي بأشعته الذهبية في الشمال والشرق. والهواء نقيٌ ونفاذ. ويتمايل نهر نيفا شامخًا

ومضيئًا. وتتدفق بهدوء موجات صغيرة على أحجار الجسر وعلى هذا الجسر أقف أنا، وتتكئ على يدي فتاة. وهذه الفتاة...

آه! أيتها السيدات والسادة الأعزاء. لماذا بدأت أحدثكم عن جراحي. ولكن هذا هو قلب الإنسان الأحمق المسكين، الذي عندما يصيبه الجرح يندفع نحو كل شخص يقابله، طالبًا التخفيف عنه ولكنه لا يجد ذلك. فهذا يدركه تمامًا كل من يحتاج إلى جورب مثقوب مرتق، فالجميع يحاول إبعاده بأصابعهم بعيدًا عن أقدامهم.

لم يكن قلبي وقتها يحتاج إلى التعافي، عندما التقيت في ربيع هذا العام ماشا، التي ربما هي أفضل ماشا على الإطلاق في هذا العالم. التقيت بها على هذا الجسر، الذي لم يكن باردًا مثل الآن. في ذلك كان لدي ساق حقيقية بدلًا من تلك القطعة الخشبية الكريهة. ساق حقيقية متناسقة، مثل تلك اليسرى الباقية، وبشكل عام أمتلك قوامًا ممشوقًا تمامًا، لا يشبه هذا الجسد ذا القدم المعاقة. كلمة سيئة ولكن ليس هناك وقت للكلمات السيئة.

وهكذا التقيتها، حدث ذلك بمنتهى البساطة. كنت أسير وهي الأخرى تسير. أنا لست مهتمًا بالنساء على الإطلاق ولستُ كذلك في السابق. الآن أصبحت بساق خشبية. لا أعرف فقد دفعني شيء ما إلى التحدث. وبالطبع لم أكن من هؤلاء الوقحين، وما شابه، بل لدي نوايا شريفة. وطمأن الفتاة وجهي الذي يتسم بحسن النية والذي أصبح يوجد به الآن ثنايا فوق الأنف شديدة القتامة.

رافقتها إلى شارع جاليرنا وإلى بيتها الذي تعيش فيه. كانت عائدة من عند جدتها العجوز التي تعيش بجوار الحديقة الصيفية، حيث اعتادت أن تذهب إليها كل مساء لتقرأ الروايات والجدة المسكينة عمياء.

الآن ماتت الجدة ومات الكثير من الجدات العجائز هذا العام وربما مت أنا كذلك. نعم أؤكد لكم كدتُ أن أموت. لكني تحملت. يا إلهي كم من الحزن يمكن أن يتحمله الإنسان. أتعرفون؟ أنا لا أعرف كذلك؟

شيء جيد جدًا، طلبت مني ماشا أن أصير بطلًا، لذلك توجب عليّ أن أذهب إلى الجيش.

انتهت الحملات الصليبية واختفى الفرسان. لكن إذا قالت لك محبوبتك «هذا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخاتم أنا!» وألقت به في النيران، فمهما كان حجم هذه النيران ولنفترض نيران طاحونة فيجين، ألن تلقي بنفسك لكي تنقذه؟

آه، كم هو غريب. فلتجيبوا أنتم. بالطبع لا. سأذهب إلى بودا وسأشتري لها خاتمًا آخر أغلى عشر مرات. وهي ستقول إنها لم تعد هي نفسها وهذا خاتم باهظ الثمن.

لن أصدق ذلك أبدًا. ولن أصير حاكمًا عليك أيها القارئ، فربما تلك المرأة التي تحبها ستفعل ذلك. فربما تصبح مالكًا لمئات الأسهم وربما عضوًا في «جريجر وكو.»

من الممكن أن تصف اليعسوب في بوخارست على سبيل التسلية، لكن تَذَكَّرْ ربما صادفت ولاحظت في الطفولة فراشة تحترق في النار، وتسليت أيضًا بذلك. رفرفت الفراشة وهي مستلقية على ظهرها ولوحت بجناحيها القصيرين المحروقين، وقد وجدت أن هذا الأمر مثير. وبعد ذلك سئمت الفراشة، فسحقتها بإصبعك. وتوقف المخلوق الضعيف عن المعاناة.

آه! أيها القارئ النبيل! لو بإمكانك أن تسحقني بإصبعك لكي أتوقف عن المعاناة. هي فتاة غريبة. عندما أُعلِنَت الحرب، سارت مكتئبة صامتة لعدة أيام ولم أستطع فعل أي شيء للتخفيف عنها.

قالت لي ذات مرة: اسمع! هل أنت شخص شريف؟

أجبتها: أستطيع أن أفترض ذلك.

- الشرفاء يؤكدون أقوالهم بالأفعال. أنت بعيدٌ عن الحرب، يجب أن تحارب.

قطبت حاجبيها وضغطت على يدي بيدها الصغيرة. نظرت إلى ماشا وقلت لها بجدية:

- نعم.

قالت لي: عندما تعود سأصبح زوجتك، فلتعذ!

خنقتني الدموع وكدت أنفجر من البكاء لكن ظللتُ حاسمًا ووجدت في نفسي القوة لكي أجيبها:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- فلتتذكري يا ماشا الشرفاء...

وختمت هي العبارة: يؤكدون أقوالهم بالأفعال.

ضممتها للمرة الأخيرة إلى قلبي واندفعت إلى عربة القطار. ذهبت للقتال من أجل ماشا. وقمت بصدق بواجبي تجاه وطني. سِرتُ بنشاط في رومانيا تحت المطر والغبار، في الحر والبرد. شاركت بكل تفانٍ في الحملة العسكرية. وفي أول لقاء بالأتراك لم أجبن، لذلك أعطوني وسامًا وترقيتُ إلى رتبة ضابط صف. أما في اللقاء الثاني فحدث نوع من الارتطام وارتطمت بالأرض.

الأنين، الضبابية، الطبيب في المعطف الأبيض، ويداه ملطختان بالدماء، الممرضات. ساقي المقطوعة ذات الشامة تحت الركبة. كل هذا مر أمامي كالحلم. وجاء قطار الإسعاف ذو الأسِرَة المريحة وبه إحدى السيدات الأكثر رقة يطير سريعًا ويحملني إلى بطرسبرج. فعندما تغادر المدينة بساقين ثم تعود إليها بساق واحدة وقطعة خشب، فإن هذا الأمر يستحق التوقف، صدقني.

مكثتُ في المستشفى، وهذا في شهر يوليو، وطلبت العثور على عنوان ماريا إيفانوفنا من مكتب العناوين، أحضره لي جندي حراسة طيب القلب. كل شيء كان هنا في جاليرنا. كتبت خطابًا واثنين وثلاثة ولم أتلق ردًا.

أيها القارئ الطيب، لقد قصصت عليك كل شيء. وأنت بالطبع لن تصدقني. فالقصة لا تصدق. يا لك من فارس، ويا لها من امرأة خائنة. تمامًا مثل رواية قديمة. أيها القارئ الفطن. ما كان يجب أن تصدقني عبثًا. يوجد هناك فرسان غيري. ففي نهاية الأمر ألصقت قطعة الخشب بي، واستطعت أن أكتشف بنفسي سبب صمت ماشا. فقد وصلت إلى جاليرنا في عربة بالأجرة ثم صعدت السلم الطويل. كم كنت أهرول عليه قبل ثمانية أشهر. وأخيرًا ها هو الباب. أخذت أرن الجرس بفارغ الصبر وسمعت وراء الباب خطى أحد ما، فتحت لي الخادمة العجوز أفدوتيا، ولم أكد أستمع إلى تعجبها المبهج، فقد ركضت إلى غرفة الضيوف، ماشا!

لم تكن وحدها، بل تجلس مع قريب لها من بعيد، وهو شاب جيد جدًا، فهو يدرس معي في الجامعة في الصف نفسه ولطالما تطلع للحصول على مكانة مرموقة. كلاهما رحب بي (ربما بسبب القطعة الخشبية)، لكن كليهما ارتبك، وبعد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ربع ساعة فهمت كل شيء.

لم أرغب في أن أقف عائقًا أمام سعادتهما. يستطيع القارئ الحكيم أن يبتسم ساخرًا: هل تريدني حقًا أن أصدق تلك الحكايات؟ من يمكنه أن يتخلى عن محبوبته لوغد من أجل لا شيء؟

أولًا هو ليس وغدًا على الإطلاق... ثانيًا: ربما أقول لك... لكن لن تفهمني... لن تفهمني... لأنَّك لن تصدق أن في وقتنا هذا لا يزال يوجد خير وحقيقة. من الممكن أن تفضل تعاسة ثلاثة أشخاص على تعاستك أنت. لن تصدقني أيها القارئ الفطن، ولا تصدق. الله معك.

اليوم الثالث هو يوم العرس، وأنا المرافق للعروسين، قمت بواجبي بكل اعتزاز في أثناء الحفل الذي أسلمت فيه أعز مخلوق لي إلى شخص آخر. ظلت ماشا تنظر إليّ من وقت لآخر بخجل، وزوجها يتعامل معي بحرج وحرص وتمَّ الزفاف مبهجًا.

أخذ الحضور يشربون الشمبانيا، ويصيح الأقارب الألمان بالألمانية «هوش» أي «ها»، وأطلقوا عليّ البطل الروسي. كانت ماشا وزوجها لوثريين.

يصيح القارئ الذكي (نعم، نعم)، ها أنت ذا أيها السيد البطل، لماذا تحتاج إلى الاعتراف اللوثري ولماذا لا يتزوج الأرثوذكس في ديسمبر! هذا كل شيء يا سيدي. وكل قصصك هي اختلاق خالص.

فلتفكر فيما تريد أيها القارئ الفطن. أصبح كل شيء لي سواء. لكن لو سرت معي في ليالي ديسمبر على طول جسر القصر واستمعت معي إلى صوت العواصف والأجراس وقرع قطعتي الخشبية، لو شعرت بما يجري في نفسي في تلك الليالي الشتوية، فلن تصدق.. (دق، دق، دق، دق)! تدق الأجراس الساعة الرابعة. حان وقت العودة للمنزل والاستلقاء على سريري البارد المنعزل والنوم. وداعًا أيها القارئ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هـــــي

ألكسندر جرين

ا

لديه صلاة واحدة، واحدة فقط. لم يصلِ من قبل على الإطلاق، حتى عندما انتزعت الحياة من روحه المضطربة صرخات العجز والغضب. والآن يجلس بجوار النافذة المفتوحة في المساء، عندما تضيء المدينة أضواء صامتة ليس لها عدد، أو على سطح السفينة البخارية، في ساعة الضباب الوردي قبل بزوغ الفجر أو في مقصورة عربة القطار، أخذ يصلي وهو يرنو بنظرة متعبة إلى قطعة قماش حريرية وقطع أخرى مذهبة، أخذ يصلي، خاتمًا يومًا مزعجًا مليئًا بالملل والضجيج، وأخذ يهمس بشفتيه: «لا أدري إن كنت أؤمن بك، لا أدري إن كنت موجودًا، أنا لا أعرف شيئًا، أي شيء، لكن ساعدني لكي أجدها، هي فقط، لن أثقل عليك بالطلبات والدموع من أجل السعادة، وإن وجدتها سعيدة فلن أقترب منها، ولن أظهر نفسي لها، لكن دعني أنظر إليها مرة، مرة واحدة فقط. سأقبل الأوساخ من تحت قدميها، سأكشف كل حنيني وشوقي أمام عينيها، هل تسمعني يا إلهي؟ أعِدها، أعِدها إليَ، أعِدها!»

الليل صامت، اجتاح الصمت عربات أجرة صغيرة ذات مصابيح نارية، وطقطقة حوافر الخيل. وامتلأ الشارع بالرقص والثمل في حالة من المرح الليلي المريب. وركضت السفينة البخارية في الضباب الوردي باتجاه الأفق المضيء الملون بلون ذهبي، والقطار يدق بانتظام بدرعه الحديديَ، قارعًا على القضبان. ليست هناك استجابة لصلاته. حينئذ أخذ يسير في حالة من الغضب، يدق بقدميه ويبكي من دون نحيب وهو يصر بشفتيه الشاحبتين، ومرة أخرى يقول بغضب ورعشة وهو يملأه الحزن: «ألا تسمعني؟ ألا تسمعني؟ فلتعدها إلي، فلتعدها!» في شبابه، ظلَّ يزدري عقيدة الآخرين ويطلق ضحكات ساخرة مرحة على الأصنام العاجزة وعلى من صنعوها. والآن خَلَقَ في معبد روحه ألوهية، خلقها بعناية وفيرة، صانعًا صورة وديعة ورحيمة لمخلوق قادر. وشكَّل نموذجًا رحيمًا للإله من بقايا ذكريات الطفولة، من لحظات التأثر أمام اللا منتهيَ المنتشر في حياته، من صُلبان الكنيسة والتراتيل، وأخذ يصلي له. مِنْ ملايين البشر، ولم يكن هؤلاء بحاجة إليه، وهو

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غريب عنهم. كانوا له مجرد صوت ورقم ومسمى ومكان فارغ. فهناك إنسان بحاجة إليه، وهناك آخر راغبٌ إليه. لكن هذا الشخص ليس موجودًا. وباختلاف الوجوه، لم تكن القلوب والنظرات موجودة في نظره. فهو بحاجة إلى نظرة واحدة ووجه واحد وقلب واحد، لكن هذا الشخص أو تلك المرأة غير موجودة.

كسى من يوم إلى يوم الشفق الحزين وجهه بعينيه المغمضتين ورأسه الساقط بين يديه. وتزاحمت حوله ظلال المساء، ينظرون وينصتون إلى أفكار بلا كلمات، مشاعر بلا مسميات، صور بلا ألوان. انفتحت عينا شخص تطلب الظلمة والصور، حيث تتزاحم في نفسه الأفكار بلا كلمات. حينئذ تحدث بكلمات، وأخذ يستمع إلى صوته وكان صوته وحيدًا. والأفكار بلا كلمات، سبقت الصور كلماته، كما لو أنّها هراوات تصل إلى الحلق وتحبس النفس. وظلال الشفق تسمع شكواه فتتكاثف وتزداد قتامة.

أنا وحيد، يا عزيزتي، وحيد، أين أنتِ؟ لا أدري، فكل يوم تمر أمامي عربات القطار بنوافذها المضيئة، وتظهر الناس في النوافذ، يغنون، أو يضحكون أو يأكلون، لكنكِ لستِ معهم، يا عزيزتي! وترسو السفن العملاقة في المرفأ كل يوم، حيث تشتعل الكهرباء، ويتحرك حشد كثيف أسود، ويسير مئات البشر على طول الممر، يبتهجون ويعبسون، لكنكِ لستِ معهم يا عزيزتي! وتعج الشوارع، وتلمع لافتات المطاعم مثل التيجان، ويجوب تلك المدينة المجنونة موجات من البشر، شباب وعجائز، رجال ونساء، تلاميذ مدارس وبغايا، حسناوات ومتسولون، يدفعونني، ينظرون إليّ، لكنكِ لستِ معهم يا عزيزتي! أنا أبحث عنكِ وأريدكِ، أريد حبّك، أريد السعادة. أنا لا أتذكر كيف كنت تضحكين، نسيت رائحة شعرك، ومداعبة شفتيك، سوف أجدك، سوف أركض خلف كل امرأة تشبهك، وبعد أن ألاحقها سألعنها. يعذبني التعطش، ويجف صدري، لكنك لست موجودة. استجيبي، ابحثي عن نفسك. اجلسي على ركبتيَ، واضغطي بخدك على وجهي واضحكي كالسَّابق مثل الشمس الذهبية وفرحة حياتي. سأهدهدك بين ذراعي، سأتفقد شعرك وأقبل كل خصلة، سأغني لك أغنية حتى تغفي. مرت الدقائق والساعات، وراح البندول يركض رنينًا، يضرب الثواني في صمت مؤلم حي، وهو يجلس يائسًا بالمعاناة، يتأرجح من جانب إلى آخر، ومن أعماق الروح السوداء المخيفة، يظهر شخص في سلاسل وأثقال ويزيح عبء كل هذا العذاب غير المحتمل. وبفضل جهد ذلك

الشخص المجهول يندفع الدم إلى صدغيه، يحدث صوتًا وهمسًا سريعًا ومجنونًا. ويندفع الحزن ويضرب في القلب بجناحيه الحادين، ومع كل ضربة يرغب القلب في الصراخ والأنين ويصبح جاهزًا للانفجار مثل كرة جوتا بيرشا. ويرتفع الحمل إلى أعلى ويصر، ويضغط على الصدر ببطء، ويطرد الهواء من الرئتين.

يضغط بيديه على رأسه ويرتجف جسده، ويدفع هذا الحمل غير الآدمي، والثقل، الذكريات تزداد وتتحرك مثل الجبل الجليدي وترن الكلمات المنسية والضحكة الوردية والأهداب المتحيرة.

وهو يصرخ:

- لا أريد، لا!

لكن كل مرة يرى مرارًا وتكرارًا وهو مرهق عاجز، ما حدث مرة واحدة، ولن يتكرر معه أو مع الآخرين أو مع أحد أبدًا...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

II

الحديقة مظلمة ورطبة وجيدة، لم يلتقِ بها لمدة ثلاثة أيام، والآن يرتجف وهو مرتبك. تذوب الرمال تحت أقدامهما، وبدا أنها تبتسم في الظلام وتضحك على حبه، ينظر إليها ويفكر. أخذ الاضطراب يعذبه أكثر، وأصبح الصمت مؤلمًا.

جلسا، وابتعد هو عن ركبتيها، يخشى أن يثير التلامس حبه، وأخذت الكلمات تنبثق ثقيلة وغير مترابطة. وحينئذ حان وقت المغادرة. انتهى كلّ شيء، وأصبح ليس من الممكن رؤيتها بعد الآن. هكذا أخذ يفكر قبل خمس دقائق من أسعد لحظات في حياته.

قالت الفتاة: ظللتُ أنتظرك أمس. وانتظرتك اليوم الثالث واليوم، لكن لم تأتِ، هل هذا هو ما يفعله الأصدقاء؟

يسمع ذلك الانتظار اللطيف في صوتها، وبدا له هذا الأمر ضربًا من السُخرية. شعر بضيق في التنفس بسبب شعور المرارة والحزن. وبعد أن تغلب على الاضطراب، قال لها بفظاظة وغضب:

- لماذا كنت تنتظرين. أليس الأمر لكِ سواء؟

شعر بشحوب وجه الفتاة في الظلام، وأصبح مكفهرًا من فظاظته، وكيف أصبحت عيناها حزينتين بشدةٍ، صمتت لبعض الوقت ثم قالت بصعوبة:

- لو كنت.... لا أدري، لو بدا الأمر لك سواء، بالطبع... فلننهض. إن الجلوس ممل.

سيطرت الشفقة على نفسه وعليها والندم والحنين إلى الحب. لا يعرف هو نفسه، كيف أخذ يديها، وأصابعها صغيرة ورقيقة ودافئة، قال بعد تفكير ثم بصوت عالٍ:

- حبيبتي! حبيبتي! سامحيني!

حلَّ الصمت الذي يبدو أن ليس له نهاية، لكن إيقاعًا فرحًا عظيمًا يقترب. لم يتذكر ما إذا كانت الموسيقى تعزف في ذلك الوقت أم أنَّ شخصًا ما يشدو. يبدو أن الجو كان مضيئًا وعذبًا. فهي لم تجذب يدها. وهو ترك أصابعها بوقار وحرص. وما زال لم يتذكر أكان قلبه الذي دقَّ، أم أنه شخص ما كان يشدو.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نهضت الفتاة، حبيبته، مصدر سعادته، وهو من دون كلمات يفهم كل حركة تصدر منها وتبعها إلى غرفتها، وأخذ ينظر إليها لفترة طويلة والدموع في عينيه، ينظر إلى وجهها المتورد، الذي أصبح قريبًا وبسيطًا ولطيفًا بشكل متناهٍ. ضحكت ثم قالت وقد رفرف الدانتيل على صدرها مثل الفراشة:

- قل لي «أحبك.»

كرر بوجل وارتباك:

- أحبك! أحبك! لا، أنا أحبك!

ضحكت، ابتعدت، ونظر هو إلى كتفيها، وهي ترتعش من الضحك، إلى حافة أذنها الصغيرة وردية اللون المتشابكة مع خصلة شعر أشقر. وبمجرد أن اقترب منها، عانقها من خلف كتفيها ورقبتها وارتجف من لمس جسدها الدافئ المرتعش. ضغطت بذقنها الصغير المستدير على يده ونظرت إلى الأمام مباشرة، إلى الحائط، بعينين سعيدتين مشرقتين ومضطربتين. سألها:

- هل أستطيع معانقتك؟

ضحكت أكثر ضحكة قصيرة غير مسموعة. ضحكت لأنه كان مضحكًا جدًا: فقد عانقها أولًا، ثم طلب الإذن...

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

III

ظل هكذا جالسًا لساعات، لكن ثقلًا رهيبًا مُغلَّق في قلبه، هذا الثقل يبدو على وجهه الشاحب ونظرته الحنون المرحة. نهض حينذاك وأخذ يسير في زوايا المدينة المظلمة المتعرجة، حيث الوميض الثمل للمصابيح ذات الضوء الأحمر والزجاج المكسور تضيء الحصى المتسخ وتغرق في البرك اللامعة ذات الرائحة الكريهة. يسمع خلف الطاولات، حيث يجلس البحارة مع محبوباتهم، صوت الضحك الأجش، وبكاء النساء، جلس هو، وأخذ يتناول الخمر، ينظر وينصت، كيف ينزلق الحمل الرهيب إلى الأسفل، وكيف أن وجه الفتاة بشعرها الأشقر أخذ يغرق في نفث دخان التبغ اللاذع. وإلى الأعلى أخذ الليل يتحرك ببطء، والنجوم تتحرك في شكل نصف دائريّ من الشرق إلى الغرب، والفجر الوردي يحرك وجهه الناعس تجاه نوافذ الحانة المكسورة. أصبح الحديث أكثر هدوءًا، وهوت على الطاولات لأسفل الأجساد السكيرة، واستقرت الشعور الحمراء الشعثة على أكتاف الرفيقات، أما هو فأصبح جسده غريبًا عنه، وبدا كما لو رأسه أصبح يعيش منفصلًا عن جسده، وألقى بفتات وعيه الباهت في شبه ظلام شاحب.

ذهب إلى المطاعم حيث عكست المرايا اللامعة بلا كلل حركات رجل أشيب ذي وجه شاب متوهج. وعلى الطاولات الرخامية بدت المفارش النظيفة أكثر بياضًا، وأخذت طياتها تلمع مثل قطع الثلج المكسور. وأخذت النباتات الحمراء تتلألأ في المزهريات الكرستاليّة، أما البحر ذو الضوء الساطع، فأخذ يهتز ويطفو على صوت الألحان العشوائية، والنساء يتمايلن بابتسامات جريئة وهن يرتدين القبعات الملونة، ويُقبِّلُ الرجال في السترات السوداء أيديهن وشفاهن الحمراء وأكتافهن الممتلئة وهم يرتعشون في ثمل وفي نشوة.

ومرة أخرى، نقل الفجر النائم وجهه الوردي إلى النوافذ ذات النقوش غير اللامعة وغطى وجوه الناس بالشمع والظلال المهلكة. مع بزوغ ضوء اليوم التالي، بدوا وكأنهم أشباح، قطع من الأحلام، قبيحة ومثيرة للشفقة. أشرق آخر ضوء ذهبي، وتفرق آخر الزائرين في الثياب المجعدة، بقبعات مدفوعة إلى مؤخرة رؤوسهم، وأنفقوا أموالهم وغادروا، أما هو فجلس، وبدا اليوم التالي فارغًا في رأيه، فارغًا وغير ضروري، مثل الزجاجات على الطاولة. أنفاسه تتألم، وصلاته هي شغفه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مرت خمس سنوات منذ ذلك الحين. مرت خمس سنوات على يوم عانقها لأول مرة وقال: هل لي أن أعانقك؟

خمس سنوات.

خرج من المعتقل أشيب الشعر. لم يتلق رسالة أو تحية خلال هذه السنوات الثلاثة. ظل حبيسًا كما لو أنه مجرم دولة مهم، لم يثلج قلبه أي خبر عنها. وكأن الناس الذين سجنوه لم يهتموا بمعاناته. كما لو أنَّ كل ما يعنيهم هو خدمة الوطن.

خشي خلال هذه السنوات الثلاثة أن يتذكر حياته، وظل يقفز من فراشه ليلًا في فزع مثل المحكوم عليه بالإعدام عندما يحلم أنه في السجن مرة أخرى. وتذكر فقط أنه يحلم حلمًا حزينًا بتعذيب الجسد الذي كان موجودًا في الأيام الخوالي الماضية، وأسِفَ لعدم تمكنه من أن يظفر بموعد معها بجسده الممزق الدامي. كان من الممكن في ذلك الوقت القديم الجيد. فهذا سابقًا ممكنٌ في الأيام الخوالي.

وعندما أطلقوا سراحه بعد براءته، أخذ يبحث عنها. هول الموقف لم يضعه في مأزق حقيقي، لكن اختفت آثارها. ولم يستطع أحد أن يخبره بمكانها. في عالم البشر الذين يعيش وسطهم كانت العلاقات والروابط هشة، مثل حياة هؤلاء البشر. يأتي بعض ويرحلون، ويأتي آخرون ومن جديد يختفون في صخب الحياة وبرودتها. يختفون مثل قطرة الندى في ساعة الصباح.

لكن أخذ يبحث عنها بإصرار وعدم استسلام، مثل الشهيد الذي يبحث عن الشهادة والعالم الذي يبحث عن فكرة عظيمة. أخذ يبحث عنها يومًا وراء يوم وشهرًا وراء شهر. يجوب المدينة، وخارجها وكل مكان يمكن أن يلقاها فيه. ولكن ذلك الشخص غير موجود، تلك المرأة.

أخذ يسأل عنها في كل مكان، في الفنادق والنزل، والمطاعم والنوادي، والمكتبات والنقابات، ويستمع له النُدل بأدب عندما يجدونه شاردًا وضائعًا. فهو يسألهم، ويستمع بكل جسده في قلق ورعب إلى إجابتهم:

- أخبروني، ألم تتوقف لديكم فيرا، من روسيا، إنها من روسيا، روسية؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بدا على وجوه الأشخاص الذين يستمعون إليه تعبير قلق ومتحير. أخذوا يركضون إلى مكان ما، يبحثون في الكتب الكبيرة ذات الزخارف الذهبية، في أكوام الأوراق والمجلات، وفي كل مرة يجيبون بصوت حنون يمتزج بالشعور بالذنب وهم ينظرون إلى وجهه المتوهج ذي الشعر الأشيب:

- فيرا. لا، يا سيدي. لم يكن لدينا سيدة بهذا الاسم.

وكلما سأل، أصبح من الصعب أن يصرح بالاسم المقدس للغرباء واللامباليين، وبدا له أن سره لم يعد سرًا، فقد زحف من المخابئ السرية، وانتشر كظلٍ غير مسموع في أنحاء الأرض، من فم إلى فم، ومن رأس إلى رأس، حاملًا عذابه وحبه.

حينئذ نظر إلى وجهه في المرآة في كراهية، لاعنًا تلك الملامح المتجهمة المعذبة، غير واثقٍ فيها مثل الخدم الذين يحرسون الكنز، فلو أصبح وجهه قناعًا حجريًا لكان هذا أفضل.

لم تسلم عضلة واحدة أو رعشة جفن من الحزن، فأصبح من الصعب عليه أن يسأل عنها، وبدا له أن الضحك يرتعش في أعين الناس التي تجيبه أنهم يعرفون سره ويحملونه من بيت إلى بيت ويمسكون بأصابعهم القذرة السر؛ الحب والصلاة.

مر الوقت، وامتلأ الربيع بالزهور وتحول الصيف إلى الزرقة، واصفر الخريف الباكي وتجمد الشتاء وأصبح فضيًا، لكن لم يكن هناك ذلك الرجل وتلك المرأة.

- أين أنتِ؟ أين أنتِ؟ سأحل شعري وأغسله بدموعي، دموعي النقية مثل حبي وحزني، وسأقبل آثار قدميك...

في بعض الأحيان يستجلب امرأة وينفرد بها. ويظهر الخدم، ويضعون كل ما تطلبه على الطاولة، وغالبًا ما تكون جائعة وثملة، وينصرفون بهدوء، يخطون بصوت غير مسموع بخطوات ناعمة ومدربة. يشرب حتى يفقد توازنه، والمرأة تجلس أمامه، وهي تحدق إليه وتكشف مرفقيها. وتخلع قبعتها بالريش الملون الجميل، وتربت على خده وتقول:

- دعنا نقرع الكؤوس. هل أنت غاضب يا عزيزي؟ لماذا؟

لكنه يظل صامتًا وتطلق المرأة ضحكة عالية مبالغ فيها، لا تعجبه. تجلس على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ركبتيه وتحرك جسدها محاولة إثارته. تسكب له ولها كأسين. يشرب وينصت إلى تساقط قطرات المطر خلف النافذة. وأحيانًا ينظر إليها ويقول:

- لماذا خلعتِ القبعة؟ إنها تناسب وجهك.

- أنا أحب السمك مع الصلصة البيضاء -تجيب المرأة- هل يجب أن أرتدي المزيد من الأحذية يا صديقي، فأنا لا أرتدي القبعات في الغرفة.

يأخذها من يدها ويقبلها في صمت لمدة طويلة. وتجلس هي في هدوء وتنزع نفسها منه وتصرخ بصوت غاضب:

- كاذب! يا لك من أحمق!

- لا داعي لذلك -يتمتم وهو يهز رأسه المليء بالهذيان- لا داعي لذلك. هل هي أنت؟

تمر دقائق وساعات، والمرأة في حالة ثمل. تلتصق به أكثر فأكثر، تثرثر بلا انقطاع وتقهقه، وترفع قدميها البدينتين في جوربين شبكيين. يجثو أمامها على ركبتيه، ويطلب بصوت هامسٍ متوسلًا:

- انظري إليَ... حسنًا... انظري إليَ... احتضنيني بقوة أكثر إحكامًا، أكثر إحكامًا، عانقيني. هكذا. أكثر قوة. أنا حبيبك، حبيبك، أليس كذلك؟

تنفجر في ضحك لا يمكن كبته، وقد ومضت أسنانها، وأخذت تهزه وهي تضغط بيديها الممتلئتين العاريتين على رقبة ذلك الشخص ذي الوجه المتوهج. وتقفز كلماتها عبر الغرفة عالية محمومة وترده إلى وعيه:

- وَيْ يا رجلي العجوز! يا لك من مسكين! يوجد مثل هؤلاء في الدنيا. يا إلهي!

أطفأ أحدهما النور. غمرتهما الظلمة، وفي الظلام غمر الجسد العاري الحار بالقبلات المحمومة الدافئة، تشبث بها، يفرك وجهه بوجهها، مرتعشًا من الكرب والألم. دفن وجهه في شعرها الداكن النفاذ، ظنًا منه أنها محبوبته، سعادته.

مرَّ الليل، وامتد ليغطي بغطاء خجول الروح العارية للرجل المخمور. ويحمل المتعة لامرأة جميلة فاسدة. ومن جديد ينقل الفجر الوردي وجهه الناعس إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الستائر ويغمر النائمين بضوء هالك.

يمر اليوم صاخبًا بلا مبالاة. ويولد يوم بعد يوم ثم يموت. ولكن لا يوجد ذلك الشخص، لا توجد تلك المرأة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

VI

أصبحت الشوارع أكثر هجرانًا وأكثر وحشة. طرقت خطوات المارة الوحيدين مسرعة، ومن مكان ما كما لو أنها تصدر من جميع الاتجاهات قرقعة العربات البعيدة تتدحرج في الشوارع المزدحمة، وظلال الناس تتسلل كضوء خافت عبر النوافذ المخفية بالزجاج، وبدا البؤس من الشارع غامضًا وعميقًا. ربما مرت ساعة منذ أن خرج من المدخل الضخم المبهج، أخذ يتحرك في كل الاتجاهات الممكنة، عابرًا الميادين والأراضي الخالية، مارًا بشوارع طويلة وأزقة قاتمة، يتوقف من حين إلى آخرَ، مدركًا أنَّه ضلَّ الطريق، بعد ذلك يخفض رأسه، ناسيًا مكانه على الفور، يمشي من جديد من دون خطة محددة، بلا هدف وينغمس في تفكير عميق.

يُفسح المارة له الطريق، لكنه لم يفسح الطريق لأحد حتى النساء، لأنه لم يكن يراهن. تعبت ساقاه، وألمته قدماه وانثنت ركبتاه، وشعر أنه لم يدرك ذلك. ورد على أحد المتسولين الذي طلب منه صدقة:

- لا أعرف، نسيت ساعتي في البيت.

فجأة استدار، وفي صمت وظلام الشارع ليلًا لاحظ مجموعة من الناس يتجمعون على الرصيف المضيء، وقد نسي أمرهم وبعد خطوات قليلة صرخوا في وجهه مباشرة بصوت أجش مثير للاشمئزاز:

- أدعو السيد لأخذ تذكرة! فرنك، فرنك، فرنك واحد فقط! كل الأخبار من أمريكا وباريس!

تنهد ورفع رأسه مثل شخص استيقظ بشكل مفاجئ بصفعة فظة.

عُلِقت أمامه لافتة قماشيَة على أعمدة مزينة بشرائط وأعلام مضاءة بضوء كهربائي مكتوب عليها بحروف حمراء معقدة على خلفية بيضاء «المسرح»، على يسار اللافتة ويمينها رُسِمَت أيدٍ مكبلة بالأصفاد بها أصابع تشير إلى اتجاه حروف اللافتة وعلى الأبواب العريضة المفتوحة لأحد المباني الخشبية عُلقت قصاصات عدة من الملصقات، وكذلك ورقة بيضاء، اقترب وشرع في القراءة:

«مغامرة غير متوقعة». «استخراج الذهب في كارارا». «الهنود ورعاة البقر».

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

احتشد الصبية حوله ودفعوه ونظروا في وجهه. تغلب عليه التعب. سار على طول الرصيف رجل ذو عين مكسورة يرتدي قبعة حمراء ووشاحًا منقوشًا ومبتلًا من المطر وصرخ بصوت جهوري غير مبالٍ:

- فرنك! فرنك واحد فقط! ابدأ! أسرع! وتفاجأ! كل الأخبار، كل الأخبار! فرنك!

دق جرس في أصابعه مع رنين ضعيف. اقترب رجل ذو وجه متوهج من المنضدة وابتاع تذكرة من امرأة بدينة ناعسة ذات كتفين مسحوقين. أزاح الستائر وخطا بضع خطوات وجلس على كرسي. هناك عشرة أو اثنا عشر يجلسون حوله، معظمهم من العمال وصغار التجار، جلسوا منحنيين يتفحصون الملصقات متعددة الألوان المعلقة على الجدران والمصنوعة من أقمشة حمراء وخضراء. جلس أمام الشاشة عازف بيانو، عجوز ذو أنف أحمر وشعر رمادي طويل مصفف بشكل فني. اهتزت هيئته الهزيلة في السترة البالية من الطرق على المفاتيح وأخذ ينتج نغمات مثيرة للشفقة. خلف الجدار دق الجرس مرة أخرى وفجأة انطفأت الأنوار. قالت فتاة صغيرة ذات عينين كبيرتين بصوت عالٍ وغامض لأمها:

- ماما، هل يريدون النوم؟

- صه! -قالت والدتها- المرأة المريضة اجلسي في هدوء.

- كوكريل -قالت الفتاة وهي ترى العلامة التجارية تظهر على الشاشة- ماما، كوكريل؟

لكن الكوكريل اختفت. ظهر الشارع الرمادي ذو البيوت الرمادية والسماء الرمادية أمام المتفرجين. سادت حياة صامتة غامضة رمادية. وتحركت من على بعد العربات والخيول وأحدثت ضجة ثم اختفت.

الناس يسيرون بالسلال، يتسوقون ويبتسمون ابتسامات رمادية، ويومئون برؤوسهم وينظرون حولهم. الكلاب تركض وتنبح في صمت، كما لو أنّ الصمت المفاجئ أصاب المتفرج. الحياة تتحرك لكنها صامتة ميتة مثل الظلال وراء القبور.

خرج صبي من متجر الحلويات وهو يقفز بمرح متجهًا بسلة مملوءة بالفطائر إلى زميله عامل النظافة الصغير الذي ينتظره، وأخذا يلتهمان الفطائر بنهم حتى شبعا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وسعدا. أتت سيارة ولم يرَ السائق أن الفتى يجلس في الخلف بين العجلات يدلي قدميه الحافيتين وينثر بهما الغبار.

- لقد ذهب -قالت الفتاة وهي تمسك كتف أمها- ماما لقد ذهب ذلك الصبي.

- اصمتي -قالت المرأة- وإلا فسيأتي عامل النظافة ويأخذك بعيدًا.

أخذ الناس يسيرون وينظرون إلى الفتاة ويضحكون. توقفت امرأة ترتدي قبعة كبيرة من القش وتحمل في يديها حقيبة، تلتفت حولها وتنظر كيف أن آلة التصوير غير المرئية للمتفرج تسجل كل ما في الحياة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

VII

قفز وبكى وصرخ واندفع إلى الأمام فاقدًا الوعي. هي!

هي؛ شمسه وحياته، عزيزته! ابتسامته الحزينة الحلوة. وجهها النحيف الرقيق! حركتها، كل شيء. هي وقد غمرها ضوء المسرح، تنظر عيناها مباشرة إلى روحه المضطربة اللاهثة. وقد سقط ظل قبعتها على وجهه. توقفت ثم مشت.

انطلقت صرخة مخيفة طويلة تقتل الصمت وتهز جدران المسرح. اندفع وجرى نحوها بعد أن أسقط قبعته وهو يدفع المارة، ركض وهو يلهث بوجه مبلل بالدموع وأصبح على بعد عشر خطوات أو خمس عشرة خطوة منها.

- فيرا! فيرا!

توقفت المرأة في ذهول عند تعريش في الحديقة من جراء الصرخة. وصل إليها وهو يرتجف من البكاء، أخذ يدها وحملها كطفل وقبلها.

أمسك به شخص ما من الخلف وسحبه بعنف إلى الجانب. استدار وأخذ يتفحص بنظرة عمياء مندهشة الشارع والناس الغرباء الذين انتزعوه من المعجزة والكنز والصلاة.

تطاير الثلج الناري أمام عينيه. ضربه شخص ما ضخم الجثة في قلبه بشيء معدني ثقيل. سادت الظلمة، وقفز اثنان من الديوك الحمراء الصغيرة على الجانبين، ولمعت عيناهما الحمراوان ثم اختفيا. وظهر رنين طويل كان يسبح ثم ينحسر ثم يتجمد.

عندما جزوا إلى المخرج الجثمان الذي أصبح فجأة غامضًا وكريهًا لكل هؤلاء الأحياء والناس الخائفين، قال فتى صغير ذو أنف معقوف وربطة عنق قذرة وعينين سوداوين للرجل الذي يدق الجرس:

- لقد لاحظته حتى قبل ذلك... لم يأخذ باقي الخمس فرنكات!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

معاناة الشاب فاجانوف

فاسيلي شوكشين

الشاب جورجي كونستانتينوفيتش فاجانوف خريج كلية الحقوق والموظف الشاب في مكتب المدعي العام للمنطقة في مزاج رائع منذ الصباح. تلقى بالأمس خطابًا، هو يتوقع من الحياة كل شيء، لكنه لم ينتظر هذا الخطاب بأي حال من الأحوال. درست معه مايا ياكوتينا. فتاة فخورٌ ذات وجه محفور.

لم ترغب مايا في رؤيته في أثناء الدراسة أو بعدها أو حتى الآن ولم تترك أي مقارنة مهووسة ومزعجة: مايا تشبه دمية خشبية صنعها حرفي ماهر. بدت بالضبط وكأنها دمية، دمية جميلة تبدو جميلة لسبب غير مفهوم، لكنها بالفعل امرأة، امرأة قادرة على طهي البورش وقادرة على إضفاء السعادة التي لا يمكن لأي شخص آخر أن يمنحها. أي إنها امرأة مثل كل النساء لكنها جميلة مثل الدمية.

أراد جورجي فاجانوف أن يفهم كل شيء، لكن لم يكن هناك شيء لفهمه: لقد أحب مايا يكاتوينا تلك، وأحبها أربعة فتيان من الزملاء في السنة الدراسية نفسها ولكنهم لم ينالوا غرضهم. في السنة الدراسية الأخيرة تزوجت مايا بشخص ما، فيزيائي عبقري. قرر الجميع أنها امرأة جميلة لكنها امرأة مغرضة وهذا هو حال كل الجميلات. لكن لم يلم فاجانوف مايا أو يسيء لها، أولًا: لأن لا أحد يمتلك هذا الحق، ثانيًا: على أي شيء يجب إلقاء اللوم عليها؟

علم فاجانوف جيدًا أنَّ مايا ليست مناسبة له. رُبما الأمر مؤسف، لكن ربما ليس مؤسفًا، بل رُبما هو الأفضل. رأى مايا هدية من القدر. ولربما سار مع هذه الهدية سريعًا إلى القاع. ولأصبح على الفور شخصًا انتهازيًا. رغب بأي ثمن في البقاء في المدينة وأن يوافق على تأدية دور موظف تافه.

لم يكن مقيدًا بشيء، ولكن مهما حدث، يسير كل شيء للأفضل. هدأ فاجانوف من روعه عندما أدرك في نهاية الأمر أنه لن يرى مايا أبدًا.

وهكذا هدأ أو يبدو له أنه هدأ، على الرغم من أنه في مثل هذه الحالات لا يهدأ أبدًا. بالأمس عندما تلقى خطابًا وأدرك أنه من مايا، لم يصدق في بداية الأمر عينيه. لكنه بالفعل من مايا... شعر بقلبه يخفق، وفكر بجدية: هكذا ربما يسقط مغشيًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عليه، يبدو أنه خاف من ذلك بمجرد أن دخل إلى غرفته. أخذ يقرأه وهو يحترق بالهواجس العذبة، ينظر إليه وينظر إلى الضوء ويقبله، والتقبيل مخجلٌ على الرغم أنه أدى تلك الحركة بحرارة شديدة.

نشأ فاجانوف في القرية مع أب صارم وأم عاملة مشغولة دائمًا. لم يعرف قط الملاطفة، ويخجل منها وبخاصة القبلات.

كتبت مايا في خطابها أن حياتها العائلية أصبحت مدمرة وهي الآن حرة وترغب في أن تستغل فراغها في رؤية بلادها؛ أن تسافر. وسألت في هذا الصدد: عزيزي جورا، هل تتذكر صداقتنا القديمة، فلتقابلني في المحطة واسمح لي بالبقاء عندك لمدة أسبوع، لطالما حلمت بزيارة تلك النواحي، هل يُمكن؟ ثم كتبت بعد ذلك أيضًا أن لديها الفرصة لإعادة التفكير في حياتها والحياة من حولها بشكل سليم. فهي الآن على سبيل المثال تتذكر جيدا جوركا بمثابرته أيام الدراسة وكيف أنه في منتهى السهولة وافق على السفر إلى البرية. أخذ فاجانوف يقرأ الخطاب بشغف وارتياح.

ذهب الشاب فاجانوف إلى العمل وهو محتفظٌ بالخطاب في حافظته. أخذ طوال الوقت وهو في العمل وهو في المنزل يفكر في الرد على خطاب مايا. يبحث عن الكلمات والعبارات التي يمكن أن يصيغها في خطاب بسيط وذكي ومليء بالمروءة والشهامة. يبحث عن الكلمات، فيجد هذه ويترك تلك، وقلبه مشغول بالتفكير، هل حقًا ستصبح لي. هل فعلًا ستأتي لترى البلاد. لا. هل هي في حاجة إلى تلك البلاد.

شُغِل حقًا بحلّ هذا اللغز المثير المتعلق بمصيره. ذهب فاجانوف إلى المكتب وأحضر أوراقًا عدة وأخذ يستعد لكتابة الخطاب. انفتح باب المكتب بصورة كريهة، وبرز منه رأس رجل حليق ألقى نظرة خاطفة على الأريكة في الممر.

- هل يمكنني الدخول؟

تردد فاجانوف للحظة ولم يحاول إخفاء انزعاجه.

- ادخل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- مرحبا.

قال رجل في عمر الخمسين، نحيل، طويل ذو ذراعين طويلين لشخص عامل.

- اجلس.

أمره فاجانوف، ودفع الورق بعيدًا.

- أنا هنا، قد قدمت شهادة.

قال الرجل بسعادة بعد أن أخرج شيئًا بعناية من جيب المعطف أطلق عليه شهادة.

- أي شهادة؟

- ضد زوجتي، تقدَّما بقضية ضدي... وأنا أريد أن أوضح....

- هل أنت بوبوف؟

- نعم.

- وماذا تريد أن توضح؟ هل ستوضح لماذا بدأت الشجار؟ ولماذا ضربت زوجتك وجارك؟ وما علاقة ذلك بالشهادة التي لديك؟

قدم بوبوف شهادته بالفعل ووقف في وسط المكتب. لعله في وقت ما كان وسيمًا جدًا، لكنه الآن أيضًا وسيم. عظام الوجنتين والأنف معقوف قليلًا، الجبهة عالية والنظرة مباشرة ومستقيمة، لكن يبدو أنه غير متيقظ تمامًا ويبدو أنه شرب كثيرًا بالأمس، وحلق رأسه بطريقة ما في الصباح واغتسل على عجل!

- حسنا أعطني الشهادة.

أسلمه بوبوف ورقتين من دفتر ملاحظات وابتعد عن الطاولة إلى منتصف المكتب وأخذ ينتظر. مر فاجانوف بعينيه على السطور غير المتساوية. لقد ترك بالفعل هذا العمل، لكنه شعر بالاستمتاع وهو يقرأ جميع أنواع تفسيرات البسطاء وشكواهم. كيف يفكرون وكيف يكتبون، هذا ليس أقل غباء من الكتابات المزيفة ولكن على الأقل أكثر صدقًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انتهى فاجانوف من القراءة.

- بوبوف. حقًا هذا لن يغير الأمر.

- كيف لن يغيره.

- لن يغيره. ها أنت هنا تكتب أنها كذا وكذا وأنها سيئة. ولنفترض أنني صدقتك، ماذا في ذلك؟

- كيف -اندهش بوبوف- إنها سجنتني عن عمد، سجنتني لمدة خمسة عشر يومًا. حكى لي كولكا كورولیف كل شيء. ومن دون رواية كولكا أنا أعرف. فقد قالت لي ذلك.

- وماذا قالت لك؟

- قالت -صاح بوبوف بثقة- سأسجنك وأعيش مع ميشكا.

- وهل قالت هذا لك بشكل مباشر؟

- نعم هذا هو الأمر -صاح بوبوف مرة أخرى، وجلس وصار الحديث رسميًا عاديًا جدًا- تقول لي سأسجنك نكاية فيك وأعيش مع ميشكا.

- قالت بالضبط نكاية فيك؟

- بلى! أنا أعرفها جيدًا!... وأعرف ميشكا هذا! لا يتخلى عن أي شيء. كنبث هنا كل شيء. وأنا أشهد على كل ما حدث. عاشا مثل الكلاب، وبقيا معًا في اليوم التالي وأمسك بهما كولكا كورولیف ذات مرة.

- حسنا، لا أعرف... -لم يعرف فاجانوف ماذا يفعل، لكن يبدو أن الرجل يقول الحقيقة المريرة- إذن لماذا لم تنفصلا؟

- إلى أين أذهب إذا طلقتها؟ سيحكم لها بالمنزل، أليس كذلك؟ والأطفال لم يكبروا بعد، أشعر بالأسف تجاههم...

- كم لديك من الأطفال؟

- ثلاثة. الصغير في السابعة من عمره. إني أحبه حتى الموت... لا أستطيع أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أفعل ذلك. سأدمن الشراب على الإطلاق.

- حسنًا، اسمع! -قال فاجانوف في غضب- أنت تبدو مثل شخص مشلول... «لا أستطيع»، «سأدمن الشراب،» كيف هذا؟ تخيل أنك لم تأتِ بالشكوى، لا لرئيسك لكن لزميلك. وأنا زميلك، لا أدري ماذا أنصحك. هل من الممكن أن تعيش معها بعد ذلك. لا يمكنك...

- أستطيع -قال بوبوف بحزم- عليها اللعنة، فقد وقعت في نزوة مرة أو مرتين. لكن على ألا يتكرر هذا مرة أخرى. أنا نفسي مذنب، أفتعل الكثير من الضوضاء، ولستُ حنونًا معها، فلو أنني أكثر حنانًا، لربما ما فعلت ذلك.

- إذن عش معها هكذا!

- أعيش... إنهما يريدان أن يُسجناني، وسيفعلان، ولديهما شهود كُثر. لقد أجريت فحوصات طبية لمدة ثلاث سنوات.

- ماذا تريد، أنا لا أفهم؟

- أن يغلقا القضية.

- وما فائدة الشهادة التي في حوزتك؟

- لتحريك الأوراق ضدهما، ربما يدركان حقيقتهما أفضل ويغلقان القضية. هما مذنبان... انظر، كيف يمكن خيانة إنسان...

- هل ضربتها بقوة؟

- نعم بقوة، وكان هناك ضجيج وصراخ...

- ألم يكن من الممكن أن يحدث ذلك من دون ضرب؟

خفض بوبوف رأسه وهو يشعر بالذنب وضرب على ركبتيه بكفيه العريضتين البنيين.

- لن أفعل ذلك...

- لن تفعل ذلك مرة أخرى! يا لنا من أخرقين! نهض فاجانوف من على الطاولة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأخذ يجوب المكتب، يشعر بالغضب تجاه الرجل وفي الوقت نفسه بالشفقة، بالإضافة إلى ذلك فهو لم يتغلب على الشعور بالشفقة. لقد تعلم فاجانوف حتى مع خبرته القليلة القدرة على التمييز: كيف يحاولون عمدًا أن يستثيروا الشفقة ويفعلوا ذلك أحيانًا بمهارة.

- حقًا لو فعلت ذلك وقدمت للطلاق، لأمكن أن يحكموا لصالحك، لكن ما الوضع الآن؟

- نعم حقًا!

وافقه بوبوف. صمتا لبعض الوقت

- ما العمل، سيسجنان أحمقَ؟

أخذ فاجانوف يفكر.

- كيف تزوجتما؟

- كيف؟ بطريقة عادية. عندما عدت من الحرب، كانت هي تعمل بائعة في سيلبي. حسنًا وأنا على معرفة بها من قبل.

- هل أنت من الأرياف؟

- نعم. لكن لم يتبقَ لي أقارب هناك. مات أبي وأمي قبل الحرب، ماتا محترقين، ومات أخواني الأكبر مني في الحرب، وكان لدي عمتان، ماتتا كذلك، أما أبناء أخواتي فهم يعيشون في المدن في مكان ما، لكن لا أعرف أين.

- وأين زوجتك الآن؟

نظر بوبوف مستفسرًا إلى المحقق.

- في مكان عملها، في سيلبي

- وهل هي في عملها الآن؟

- في عملها.

- من علمك الإدلاء بالشهادة؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لا أحد. أنا بنفسي. قالوا لي من الضروري أن يكون لديك ورق تستطيع أن تتحرك به للمواجهة... وأنا فكرت كيف يمكن أن أتحرك... وكتبت هذا.

- حسنًا! اتركها لي واذهب. سأحاول التحدث إلى زوجتك.

نهض بوبوف... أراد أن يقول شيئًا أو يسأل، لكنه نظر إلى فاجانوف وأومأ برأسه مطيعًا وغادر بحذر.

بقي فاجانوف وحده، وظلَّ واقفًا لفترة طويلة، ينظر إلى الباب. بعد ذلك جلس وأخذ ينظر إلى الأوراق البيضاء التي أعدها لكتابة الخطاب وسأل:

- حسنًا يا مايا، ماذا سنفعل؟

وانتظر أن تحرك قلبه الرقة، وأن ينسكب بداخله الدفء، لكن هذا لم يحدث.

- آه! اللعنة! -قال فاجانوف بغضب، ثم فكر- سأكتب في المساء.

توجهت العاملة من مكتب المدعي العام إلى بوبوفا في سيلبي. كان المكان قريبًا.

لا يزال فاجانوف ينظر إلى الورق الذي يدين بوبوف. لقد أوصلا الأمر إلى حتمية أن يُسجن الرجل. كيف تم كل ذلك بتخطيط وذكاء. عُثِرَ على الكاتب. أخذ فاجانوف يحرك شهادة بوبوف ويقرأها مرة أخرى. وثيقة إنسانية مضحكة وحزينة... ليست شهادة، وإنما وصف حقيقي لما حدث. يكتب فيها: «وصلت وأنا حليق الشعر، وجلست هي مثل الأفعى على فراش من الريش. قلت لها: أخبريني، كيف تغيرت بهذا السوء مرة أخرى؟ كانت ترى الأمر سيئًا، ويحتاج إلى شجاعة. أحرقت قلبها ذات مرة، هل من الممكن أن تهدأي؟ لقد ابتعدت وهربت إلى مكان ما، ليس عند أقاربها، بل عند ميشكا. لقد غرر بها ميشكا، وأنا لم أفعل ذلك...»

تبلغ بوبوفا التي لا تزال جميلة، الأربعين من عمرها، جريئة ولديها أخلاق مألوفة لدى البائعين، وأظهرت على الفور أنها تعرف القانون وأن القانون يحميها.

- هل يمكنك أيها الرفيق فاجانوف أن تتخيل أني فقدت معنى الحياة، كيف أنه يقبل على الشراب، كيف دخل في عالم العربدة، إنه يشعر بالغيرة نحوي من ذلك الشخص الذي يُدعى ميشكا!... إنه أحمق غير عادي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نعم، نعم... التقط فاجانوف ما المألوف لدى تلك المرأة المفعمة بالحيوية. يا له من فاجر، ما لا يعرفه هو أن الأمر أصبح الآن جادًا. لقد نسي.

- لقد نسي كل شيء في الدنيا! لا شيء يتذكره، فهو يحتاج إلى ثلاث سنوات لكي يتذكر.

- الأطفال فقط... من دون أب.. لا شيء؟

- لماذا؟ لقد كبروا الآن... من الأفضل ألا يصبح لهم مثل ذلك الأب.

- هل هو دائمًا هكذا؟

- هكذا كيف؟

- يعربد ويتشاجر؟

- لا، لقد كان يشرب فقط من قبل، لكن أكثر هدوءًا. الآن أصبح غيورًا من ميخائيل هذا... منذ العام الماضي بدأ يهددني، نعم يهددني يا جورجي كونستانتينيتش: ويقول سأقتلكما.

- حسنًا حسنًا! ومن ميخائيل هذا؟

- إنه جارنا! سكن بجوارنا العام الماضي ويعمل سائقًا في سيلبي.

- هل هو وحيد؟

- نعم: انتقل إلى هنا، ولم يبع منزلهما. زوجته لا تعيش هنا، وإنما هو فقط. هو شغوف بالصيد، وفي منطقتنا الصيد جيد جدًا. إنهما يعيشان في منزلين، ويزرعان حديقة أيضًا هناك وهنا... وهما بالفعل لديهما حديقة نباتات ولكنهما في الأساس جشعان.

- نعم نعم.. -اقتنع فاجانوف تمامًا أن بوبوف على حق: وأن زوجته تخونه بوقاحة وبفقدان الضمير- لكن يكتب هنا، كما يزعم، أنك قلت له مباشرة: «سأسجنك وأعيش مع ميشكا.» -لم يكن هذا مكتوبًا في الشهادة لكن فاجانوف تذكر كلمات بوبوف وتظاهر أنه يقرأ المكتوب- هل هذا صحيح؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- إنه يكذب.

- يكذب!

- يا لها من امرأة شديدة الثقة في نفسها، أخذ يفكر فاجانوف بغضب في نفسه- لن أسامح هذا الرجل.

- هذا يعني أنك ستسجنينه؟

- يجب أن يسجن، جورجي كونستانتينيتش، ما العمل، فليُسجن.

- ألن تأسفي على ذلك؟

انفجرت تلك الكلمات من فاجانوف من دون إرادة. بوبوفا حذرة... نظرت إلى المحقق الشاب نظرة متسائلة وابتسمت ابتسامة ماكرة.

- بأي منطق آسف؟

تساءلت.

- نعم. -تجنب فاجانوف الحوار معها- فلتذهبي.

قال وهو ينظر إليها بنظرة ثاقبة.

قالت المرأة «أجل.»

نهضت، سارت إلى الباب، استدارت في قلق... ظل فاجانوف ينظر إليها.

- نسيت أن أسأل: لماذا تأخرتِ في إنجاب الأطفال؟

ارتبكت المرأة تمامًا، ليس من السؤال وإنما من أن المحقق الذي تغير أمام عينيها: نغمته، نظرته... عادت مرة أخرى إلى الطاولة من جراء الارتباك وجلست توًا على الكرسي.

- لم أكن خبلى -قالت- لم أكن حبلى لسبب ما، وبعد ذلك حملت، ماذا في ذلك؟

- لا شيء، اذهبي.

قال فاجانوف مرة أخرى، ووضع يديه على الورق. سنفهم كل شيء جيدًا، كل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شيء. ستصبح المحكمة أكثر وضوحًا وصرامة وستحدد من المذنب، وسيضطر أن يجيب.

- إلى اللقاء.

اتجهت المرأة إلى المخرج... لكن لم تغادر بالثقة نفسها كما دخلت.

- حسنًا.

تذكر فاجانوف شيئًا آخر.

- من هو...؟

تظاهر أنه يبحث في الورق عن الاسم المنسي للشاهد على الرغم أن الاسم غير موجود أيضًا.

- نيكولاي كورليوف؟

- يا الله -صاحت المرأة عند الباب- كورليوف؟ إنه رفيقي في الشراب، ومن يصدق هذا؟

فقدت المرأة صوابها وبدا في صوتها الاستسلام.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كلمة المترجمة

موضوع الحب هو موضوع أبدي في كلّ الأعمال الأدبية منذ قديم الأزل، ليس فقط في الأدب الروسي بل في مختلف آداب العالم. وقد أُفردت له صفحات وصفحات وكتبت عنه أعظم القصص والروايات والمسرحيات. فلم ينسَ العالم *روميو وجوليت* لويليام شكسبير *وقصة حب* لإيريش سيجال *وجين آير* لتشارلوت برونتي *وحب وكبرياء* لجين أوستِن *وآنا كارنينا* لليف تولستوي *وذهب مع الريح* لمارجريت ميتشل *والحب في زمن الكوليرا* لجابرييل جارسيا ماركيز. لكن الأمر يبدو مختلفًا نسبيًا في الأدب الروسي الذي ارتبطت قصص الحب فيه بالمرارة والدموع والحزن والفراق.

ازدهر التيار العاطفي في الأدب الروسي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر على يد الكاتب الروسي الكبير نيكولاي كارامزين (1766- 1826) الذي تأثر بالمدارس العاطفية الأوربية التي ازدهرت في النصف الأول من القرن الثامن عشر على يد جان جاك روسو (1712-1778)، وجوته (1749-1832)، وريتشارد سون (1689-1761).

أما الكاتب الروسي ألكسندر كوبرين (1870- 1938) فمن أبرز أدباء الحب العذري الصوفي، الذي بدا راقيًا ساميًا منزهًا عن كلّ الشهوات والغرائز المادية. اقتحم كوبرين أعماق النفس البشرية، ونفذ إلى مكنوناتها وصوَّر أصدق مشاعر الحب التي يتمناها كل إنسان في هذه الحياة التي يموت من أجلها عن طيب خاطر بعض أبطال قصصه وأعماله.

لا تنتهي قصة عاطفية لدى كوبرين نهاية سعيدة، فالحب لديه مقترن بالعذاب والمعاناة والألم والفراق بين المحبين. وتتعدد أسباب الفراق، فبعضها يكون إراديًا يقرر فيها أحد البطلين الابتعاد عن حبيبه، وبعض آخر يكون لا إراديًا حيث تجبر الظروف الحبيبين على الافتراق.

استخدم الكاتب كثيرًا من الوسائل الفنية المختلفة التي استطاع بمهارة شديدة عن طريقها أن يصور أبطاله وشخصياتهم وأفكارهم ومشاعرهم والعلاقات العاطفية بينهم وكذلك مصائرهم ومن بينها: وصف الأماكن، ووصف الشكل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخارجي للأبطال، وانعكاسات الطبيعة، والعبارات المقتبسة، والكناية، والاستعارة والرمز وغيرها، كما استخدم الكاتب الخطاب أو الرسالة كوسيلة فنية هامة في كثير من أعماله يستطيع البطل من خلالها البوح بأدفأ المشاعر وأصدقها. ونادرًا ما يسمي كوبرين أبطاله، فالبطل الحقيقي والأوحد في جميع أعماله هو الحب الذي يمر به الجميع، فالقارئ لا بُدَّ بشكل ما أو بآخر أن يجد نفسه بين أحد أبطاله.

يميل كوبرين إلى بطله البسيط الضعيف المهمش، فهو الأقدر على منح مشاعر الحب الحقيقية المخلصة، وكثيرًا ما يتألم هذا البطل ويعاني بعد أن يصطدم بالظروف والفروق الطبقية أو الاجتماعية التي يقف أمامها عاجزًا وينتهي حبه ومصيره نهاية مأساوية.

في قصة **«القادم الأول»** يظهر البطل فقيرًا ضعيفًا مُهمَشًا وانطوائيًا، يقضي نهاره بحثًا عن قوت يومه متجنبًا التعامل مع الناس ويقضي ليله حالمًا، تاركًا العنان لخيالاته. وفي عالم الخيال يرى نفسه ذكيًا وسيمًا ماهرًا مُسيطرًا على قلوب النساء، حتى تمر عليه حادثة تغير مسار حياته، عندما يقابل بالصدفة في أحد الشوارع المظلمة ليلًا التي يتردد إليها فتيات الليل، امرأة جميلة تنتمي للطبقة الأرستقراطية وتطلب منه اصطحابها لأي مكان لتنتقم لكرامتها التي أهدرها زوجها بعد أن خانها، وبعد أن يرافقها إلى أحد الفنادق الرخيصة الوضيعة تستفيق من صدمتها وتدرك أن امرأة نبيلة مثلها لا يمكن أن تلحق بنفسها العار وتطلب منه ألا يعرفها ثانية أو يعرف اسم عائلتها أو يحاول أن يلاحقها أبدًا. يستجيب لها ويتركها وترحل. ولكن لم تمر عليه تلك الواقعة بشكل عادي، بل يقع في حبها ويظل مجنونًا بها، يستحضر كل ليلة صورتها وتفاصيل الواقعة ويعيش فيها. وتمر الأيام ويقابلها بالصدفة وهي تجلس في عربتها الفارهة ويعرف اسم عائلتها، بعد تلك الواقعة يُنفى بعيدًا عن المدينة كلها، وفي نهاية الأمر يقرر أن يرسل إليها خطابًا من المستشفى التي يمكث فيها يعترف فيه بحبه لها ويطلب منها ألا تقلق بسبب تلك المشاعر لأنه علم من الطبيب أنَّ شهورًا قليلة جدًا تفصله عن الموت المحتوم بعد إصابته بمرض لا يمكن الشفاء منه.

أما في قصة **«الحب المقدس»**، فيظهر طالب الجامعة الحالم ذو المشاعر المرهفة الذي يحلم بحب سامٍ طاهر خالٍ من الشهوات، ويقابل هذا الحب بالصدفة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما يلتقي فتاة جميلة رقيقة تتجسد فيها كل أحلامه بذلك الحب العفيف. تبدأ العلاقة بنظرات متبادلة ثم حديث متبادل ثم عرض الزواج، وقد أخبرته الفتاة أنها فقيرة ولم تكمل دراستها، وتخشى أن يأتي يومًا يشعر تجاهها بالدونية وأنها لا تستحق أن تظل شريكة حياته، لكنه يخبرها أن حبه لها أقوى من كل تلك الأمور. يستعدان للزفاف، ويشعر بقليل من الندم أن ربما يسلبه هذا الزواج حريته كما أخبره أقرانه، لكن مهما كانت الملابسات، فإن حبه المقدس يسمو فوق كل شيء. وذات مرة وفي أثناء سيره ليلًا في أحد الشوارع الفارغة وجد زوجين يجلسان على مقعد يتبادلان العناق، وسمع الفتاة وهي تتحدث عن قدرتها على إيقاع أحد الشباب الجامعي في شباكها، وأنه لن يعرف شيئًا عن مغامراتها العاطفية وأن كل همها الحصول على المال الذي تنفقه على نفسها وعلى أمها وعلى عشيقها، وكانت الصدمة الكبرى أنه عرف ذلك الصوت، وهو صوت ملاكه البريء، محبوبته التي كان يتأهب لربط مصيره بمصيرها. كانت الصدمة كبرى وقد أفقدته الشغف للحب مرة أخرى في حياته حتى تقدم به العمر وبلغ الشيب مبلغه منه.

في قصة **«أزهار الخريف»**، يتجسد الحنين إلى الماضي وإلى الحب الأول، فالبطلة فتاة جميلة تعيش في إحدى المدن الصغيرة ويجمعها قصة حب عميقة مع شاب مثلها في مرحلة الدراسة يعيش في مدينتها. عرفا معًا معنى الحب وعاشا معًا كل تفاصيله، وكانا يستمتعان بكل لحظة تمر عليهما. ولكن تتبدل الأحوال ويتقدم لها رجل ثري للزواج ويأخذها معه إلى العاصمة وبعد انقضاء بعض الوقت من الزواج تشعر بالاختناق وعدم التكيُف مع ذلك المجتمع المنفتح وانشغالات الزوج المستمرة وحفلات العمل اليومية وتشعر بغربة شديدة وسط أناس لم تألفهم ولم تعتد مجالستهم ولم تستطع ذلك. تشعر بالحنين لحبها الأول وإلى مدينتها الصغيرة وإلى ماضيها العزيز. ترسل خطابًا إلى حبيبها وتلتقيه لكن تكتشف أن مشاعرهما قد بردت وأن هناك حاجزًا كبيرًا نشأ بينهما، وأن حبهما بدا كشخص عزيز والآن قد رحل عنهما، وترك لهما الذكريات فقط. ترسل إليه في اليوم التالي خطابًا لتخبره بالمغادرة والرجوع مرة أخرى إلى حيث أتت.

في قصة **«افتتان»**، تقع فتاة المعهد البريئة في حب فنان مشهور، ترسل إليه رسالة ويرد عليها، ويتبادلان الرسائل الغرامية ويبوح لها بكل أسراره ونظرته للحياة التي اتسمت بالتشاؤم وعدم التسالم مع الواقع المحيط، تتعاطف معه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتذوب في عالمه. تتطور الأحداث وتجبرها والدتها على السفر معها لقضاء بعض الوقت في بيتهما الريفي وهناك يتردد إليهما جنرال يكبرها في السن، ويكون الضيف الدائم لهما، وتنقطع المراسلات لبعض الوقت مع الفنان المشهور، وتبذل الأم كل الجهود للتقريب بين ابنتها وبين الجنرال، وتأخذ الفتاة قرارًا قاطعًا إما الفنان وإما لن تتزوج أحدًا أبدًا. وبمحض الصدفة وفي أثناء تجولها في القرية هروبًا من لقاء الجنرال الذي تتركه منهمكًا في الحديث مع أمها، ترى بيتًا ريفيًا وترى أسرة سعيدة، يتحدث أفرادها معًا ويضحكون ويتبادلون أطراف الحديث، وتنظر وتتمعن وتكتشف أنه معشوقها الفنان، متزوج ويعول أسرة، لم تتخيل ذلك ولم ترغب في أن تبني سعادتها على أنقاض سعادة أسرة أخرى وفي النهاية تتزوج الجنرال دون حب أو عاطفة.

قصة **«هيًا»** هي قصة مأساوية لفتاة سيرك صغيرة تُسمى نورا، عملت في السيرك منذ أن كانت طفلة صغيرة وهي لم تتعدَ الخمس سنوات، عالم الأكروبات والإسطبلات والخيول هو عالمها الوحيد، ويصور الكاتب مدى معاناتها وإجبارها على العمل والكد بالرغم من كل الظروف. يصف الكاتب إحدى الحوادث وهي سقوط الفتاة في أثناء أحد العروض مما أدى إلى وقوعها مغشيًا عليها وإصابتها وخلع كتفها، ومع ذلك وعلى الرغم من الآلام المبرحة، عملوا على إفاقتها وأجبروها على الخروج للجمهور الذي كان ثائرًا بسبب تلك الحادثة، وتحاملت على نفسها لدرجة لا تطاق.

تكبر الفتاة وتبلغ السادسة عشر من عمرها، ويأتي إلى السيرك المهرج مينوتي الذي له شهرة عالمية وسط مهرجي السيرك. يغرر بالفتاة وتقع في حبه، وترافقه في كل مكان وتعمل على خدمته، ويمر عام، يسأم منها، ويقسو عليها، ويهينها، ويصفعها على وجهها أمام الجميع وتقبل هي كل ذلك بنفس راضية مثل الكلب المخلص المطيع وفي النهاية يتعلق بفتاة إنجليزية ويطرد نورا شر طردًا، لكنها تعود له وتقتحم عليه الغرفة وهو مع عشيقته الجديدة وتتشاجر معها، يهينها ويركلها بقدميه، حتى تقرر الانتحار وتلقي بنفسها بحركة أوكروباتية من نافذة غرفته.

Telegram:@mbooks90

قصة **«القبلة المنسية»** هي قصة خيالية، بطلها أمير شاب، قبلت شفتيه إحدى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجنيات وهو صغير، ويبدو أنها تركت أثر السحر عليه. كان الأمير الشاب يقضي كل وقته في أحضان النساء، وينتقل من امرأة إلى امرأة ومن عشيقة إلى أخرى، ومع ذلك لم يذق طعم السعادة ولو ليوم واحد. أبوه الملك يدرك تمامًا أنَّه غير قادرٍ على المسؤولية وأنه لن يستطيع أن يحكم البلاد بعده والبلاط كله يدرك ذلك. لكن يموت الملك ويرث الأمير عرش أبيه ويستمر في علاقاته مع النساء بل ويفرط فيها باحثًا عن شيء ما قد نساه وباحثًا عن السعادة المفقودة.

شعر الأمير بقرب الموت، وخشي أن يموت دون أن يتذكر ذلك الشيء المنسي الذي قلب موازين حياته. وفي أثناء ضعفه واحتضاره ظهرت الجنية أمامه وطبعت على شفتيه قبلة وحينها تذكر كل شيء لكنه سقط بلا حراك ميتًا وبدت على وجهه السعادة والرضا.

في قصة **«رواية عاطفية»**، يصور كوبرين معاناة المريضة التي تدرك أن موتها أصبح وشيكًا، وهنا تقرر أن تكتب خطابًا لحبيبها الذي كان نزيلًا معها في المصحة التي تقبع فيها. تخبره في الخطاب عن جمال الحياة والطبيعة وأن الطبيب المعالج لها يرغب في أن تترك المصحة، لأنَّ حالتها ميؤوس منها، فقد بلغ السل عندها مرحلة خطيرة وهو لا يرغب في أن يؤثر موتها في نفسية باقي المرضى وكذلك حتى لا يُسيءَ إلى سمعة مؤسسته. وهنا تقرر استخدام حق المحتضرة في أن تموت ميتة كريمة، وأن تستمتع بكل شيء حولها، الطبيعة، والجو، والبحر، والزهور وكل ما تراه من خلال نافذة غرفتها فهي لا تقوى على أن تتجاوز حدود الشرفة. وتعترف في رسالتها بالحب لذلك الشخص الذي التقته في المصحة وأنها سعيدة جدًا لتعافيه وعلى استعداد لأن تقبل قدم الطبيب بعد أن طمأنها على حالته، وتصف له تلك الواقعة التي جلست فيها بجواره في حديقة المصحة وهو يمسد على شعرها وطبع عدة قبلات على خدها ووجنتيها، فسَرت حرارة الحب في جسدها ولم تنطفئ منذ ذلك الحين. وختمت رسالتها بأنها لا تقصد إثارة التعاطف معها وأنها تدرك تمامًا أن العفة للمرضى ليست فضيلة وإنما واجب، وذكرت له أنها تتمنى أن تراه ولو مرة واحدة ليقويها ويشجعها لحظة السقوط الكبرى.

«ماشا المسكينة» هي رواية قصيرة للكاتب الروسي الكلاسيكي ألكسندر إيزمايلوف، أحد رواد العاطفية في الأدب الروسي. تصور الرواية الحب الشديد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غير المسبوق بين الزوجين ماشا وميلوف. فقد كان غريبًا عن البلدة، وهي فتاة يتيمة من أهل البلدة تعيش مع عمها وزوجته اللذين أحباها مثل ابنتهما بعد أن حرمهما الله من الإنجاب، وكانا يحلمان أن يزوجاها بشاب طيب مستقيم، كما أن ماشا حلم لكل شاب في بلدتهم لجمال شكلها وجمال طبعها. تمر الأيام جميلة سعيدة مليئة بالحب بين الزوجين حتى يأتي اليوم الذي يقرر فيه ميلوف السفر وتصر ماشا على السفر معه، فهي لا تقوى على العيش بعيدًا عن زوجها. ويقنعها أنه لن يغيب عنها طويلًا وأنَّها لن تتحمل مشاق السفر بسبب حملها، كما أنه لن يقطع الخطابات والمراسلات.

يغيب ميلوف وتنقطع أخباره وتنجب ماشا ابنها الذي يشبه والده تمامًا وتطلق عليه اسم أبيه، لكن الحزن يخيم عليها وتتبدد فرحتها بسبب غياب الزوج. ويحاول العم البحث عن صهره حتى يعلم من أحد أصدقائه أن زوج ابنة أخيه الخائن لم يسافر من أجل العمل كما أخبر زوجته، لكنه يعيش مع زوجته الأخرى الألمانية ولم يحاول التواصل مع ماشا أو الرجوع إليها.

ينصح العم ماشا بأن ترفع دعوى ضد زوجها للانفصال عنه، لكنها ترفض وتقرر أن تسافر إليه عند زوجته الأخرى شارلوتا. ينهار ميلوف ويعترف أمام زوجتيه بالخيانة ويطلب العفو والصفح ولكن شارلوتا لم تتحمل خيانة ميلوف وتنتحر بعد أن تطعن نفسها بسكين كبير في الصدر. ويحاول ميلوف هو الآخر الانتحار لكن ماشا تنجح في أن تمنعه. ثم يستغل غيابها وينفذ جريمة الانتحار بعد أن يقطع شرايين رجليه ويديه وتعود ماشا إلى بيت عمها وحيدة مقهورة يعتصرها الحزن، تلعن حياتها وتعتبر نفسها قاتلة زوجها وغريمتها وتموت بعد عدة أشهر من تلك الحادثة.

«قصة ماريا المسكينة» للكاتب الروسي ميخائيل ميلونوف تبدو من النظرة الأولى أنها قصة درامية حزينة، حيث وصف الكاتب حياة الفتاة الرقيقة ماريا التي تشعر بالوحدة والخوف خاصة بعد فقدان أمها وجفاف معاملة والدها. لكن فجأة تبتسم لها الحياة عندما تقابل الشاب الريفي البسيط ميلون ويعترف لها بحبه، فتبدد إلى حد ما مشاعر الحزن التي كانت تسيطر عليها. لكن القدر لم يمهلها الكثير من الوقت لتستمر سعادتها، حيث يعلن لها والده عن نيته في تزويجها بإراست

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الرجل الثري الذي تقدم لخطبتها، وهنا تعترف لوالدها بحبها لميلون، ويرفض الوالد رفضًا قاطعا أن يزوجها هذا الشاب الفقير المعدم، ويجبرها على الزواج رغم عنها بالعريس الغني.

تلتقي ماريا ميلون وتقص له ما حدث، ويحاول أن يقنعها بالهرب معه، لكنها ترفض أن تلحق العار بوالدها. وفي يوم الزفاف وفي لحظة خروجها من الكنيسة تجد ميلون أمامها وقد أحضر خنجرًا وطعن به نفسه ليقع صريعًا أمام الجميع. تنهار ماريا، وتترك عريسها ووالدها والقرية كلها وتعيش وحيدة حزينة وحدها في كوخ صغير حتى تموت وتلقى حتفها.

أما في قصة **«رواية قصيرة جدًا»** للكاتب الروسي فسيفولود جارشين، فتتجسد الخيانة المشينة للوعد والعهد المقدس في أسوأ صورها. فالبطل الشجاع أحب بكل وفاء وإخلاص فتاته ماشا، وكان على استعداد أن يضحي بكل شيء من أجلها. وقد تم ذلك، فقد طلبت منه أن يذهب لساحة القتال وأن يحارب على الجبهة، لأنها ترغب في أن ترى شريك عمرها بطلًا فارسًا تتباهى به أمام الجميع، ووعدته أنها ستصبح زوجته فور عودته من ساحة القتال وانتهاء المعركة، مؤكدة وعدها بعبارة «الشرفاء يؤكدون أقوالهم بالأفعال.» يطيعها ويذهب إلى الحرب، ويبلي بلاءً حسنًا بل ويحصل على أرفع الأوسمة، ومعركة تلو المعركة يسقط مصابًا جريحًا ويفقد قدمه اليمنى التي تُبتر ويضعون له مكانها قدمًا خشبية ليتحرك بها. يعود إلى بلدته ليلتقي حبيبته ماشا والحزن يعتصر قلبه بعد فقدانه قدمه التي كان يركض بها ويصعد السلم هرولة. ولكن تأتي الصدمة الكبرى عندما يعلم أن ماشا تستعد للزفاف بصديق لهما من أيام الدراسة. لم يعاتبها ولم يفسد فرحتها، بل فضل أن يعيش في عزلته وحيدًا شريدًا، يبكي على ماضيه وحاضره ومستقبله بل والأكثر من ذلك حضر زفاف حبيبته وكان شاهدًا على عقد زواجها.

قصة **«هي»** للكاتب ألكسندر جرين هي حالة شعورية حزينة سيطرت على بطلها من بداية القصة حتى نهايتها. فقد تعرض للسجن والاعتقال وهناك لقي العقاب والتعذيب، ولكن لم تبلغ شدة العذاب الجسدي قوة المعاناة النفسية التي عاشها وعاناها بسبب فقدان حبيبته فيرا. وبعد أن أطلق سراحه، أخذ يبحث عنها بجنون في كل مكان، في الشوارع، في الطرقات، في المطاعم، في الحانات. يجوب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الليل، ينظر في وجوه الناس ويتفحصها باحثًا عنها، يستعيد الذكريات، ويحاول أن يستحضر صورتها، ويتألم عندما يشعر أنه من الممكن أن ينسى ملامحها، يتذكر كلماتها، وضحكاتها، ولقاءهما معًا، تارة يتضرع إلى الرب لعله يسمع نداءه، وتارة يقضي ليالي حمراء مع النساء لعله ينسى حبه الذي أدمى قلبه لكنه يفشل. وفي نهاية الأمر يلتقي بحبيبته فيرا في صدفة عجيبة، وعندما يحاول أن يحدثها، يظهر شخص آخر ضخم الجسمان، يرافق فيرا يضربه على رأسه ليسقط على الأرض. وتتبدل كل أحلامه التي كان يعيش من أجلها وهو لقاء حبه السابق فيرا.

في قصة **«معاناة الشاب فاجانوف»** لفاسيلي شوكشين تظهر القصة في بدايتها عاطفية رومانسية حيث يتلقى البطل المحقق الشاب في مكتب المدعي العام فاجانوف من محبوبته مايا ياكوتينا خطابًا تطلب فيه أن تبقى عنده لمدة أسبوع لأنَّها ترغب في زيارة قريتها التي تركتها وتزوجت في مكان آخر، وكان يعلم جيدًا أنَّها امرأة مغرضة ولكن العاطفة والحب يغلبان عليه وتمنى كثيرًا أن تكون له وعزم على أن يكتب لها خطابًا رقيقًا للرد عليها. لكن تتغير نظرته ويتغير مجرى الأحداث عندما يدخل عليه أحد العمال البسطاء المهمشين يقدم له شهادة ضد زوجته، شاكيًا من أنها ترغب في سجنه والهروب مع عشيقها، وعلم من قضيته أنه يخشى بشدة السجن وأنه لا يقوى على الانفصال عنها لأنه سيصبح شريدًا وستطرده من المنزل وسيفقد أبناءه الثلاثة، وأنه على استعداد أن يتقبل الوضع على ألَّا تسجنه وأن تتوقف عن سلوكياتها وعلاقتها الشائنة. شعر المحقق بالصدق والتعاطف في كلامه، واستدعى زوجته التي أنكرت كل شيء واتهمته بإدمان الشراب والعربدة. ولكن بذكائه وأسئلته المتوالية استطاع أن يكشف كذبها ملمحًا إلى أن المحكمة ستتمكن جيدًا من معرفة المذنب وستحاكمه.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أ.د/ دينا محمد عبده

أستاذ الأدب الروسي

تخرجت في كلية الألسن جامعة عين شمس وحصلت على درجة الدكتوراه في الأدب الروسي في عام 2010م ودرجة أستاذ مساعد في عام 2015م ودرجة أستاذ في عام 2021. نشرت الكثير من المقالات والأبحاث العلمية باللغتين العربية والروسية في مصر والكويت والسعودية وروسيا وكازاخستان وداغستان. شاركت في تقديم كتب عدة منها «أنطون تشيخوف بعيون مصرية،» وصدر لها كتاب «الأدب الروسي في القرن الثامن عشر،» وكتاب «نماذج من الأدب الروسي المعاصر،» وترجمت بعض الأعمال الأدبية الروسية. شاركت في كثير من المؤتمرات المحلية والدولية والبرامج الإعلامية الإذاعية والتليفزيونية، وحصلت على عدد كبير من شهادات التقدير والميداليات لجهودها العلمية في نقل الأدب والثقافة الروسية إلى اللغة العربية وإلى القارئ العربي. تولت الإشراف والتحكيم في رسائل عدة للماجستير والدكتوراه، وكذلك تحكيم ترجمات العديد من الكتب الروسية الصادرة عن مراكز الترجمة في دول عربية عدة. اعتمدت رسميًا محكمةً في اختصاص الأدب الروسي والأدب المقارن ضمن وحدة الترقيات العلمية في كلية اللغات جامعة بغداد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner